إسحاق الشيخ يعقوب

في حضرة جلال الدين الرومي



رواية

اسحاق الشيخ يعقوب

في
حضرة جلال الدين الرومي

رواية

دار الفارابي

الكتاب: في حضرة جلال الدين الرومي

المؤلف: اسحاق الشيخ يعقوب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٥

ISBN:978-614-432-228-4

... وكأنها في حضوره... وهي تناجيه بهمس روحها... وكان يُرخي رأسه في حضنه ويفتح كفيه كأنه يقرأها في خطوط كفيه دون أن ينظر إليها...

أهي مصحف ليقرأها؟ كشفت عواطف خمارها عن وجهها... وبانت آيات نظراتها في تطارف عينيها...

أسرار العين في الجسد... أم في الروح؟! سأل نفسه: الروح تحوي الجسد أم الجسد يحوي الروح؟! فأصبح نقيض قلب وعقل... أ للعقل قلب؟! أم أن للقلب عقل؟!

وقال في نفسه دون أن تسمعه عواطف: القلب سيد العقل... والروح تتسيدهما. الروح تتسيد العقل والقلب!!

تلمظت عواطف شفتيها بحلاوة رضاب فمها وقالت: أتدري سيدي ومولانا جلال الدين... إني أحسها في داخلي وأدري أنها تحسني وأنا فيض جسدٍ في جسدها وروح في روحها وهي تبادلني ذلك... أحسها ألمسها وتبادلني ما أبادلها... إني أستضيء بقمرها

فيّ... وأدري أنها تستضيء بقمري فيها... تماماً كما كنت تحس شمس الدين التبريزي في داخلك ويبادلك أحاسيسه... «الساطعة فيك كالقمر» وتماماً كما خلدته في (المثنوي) وأبقيت مسكنه فيك... قداسة عشقٍ ذكرٍ كريم «عند طلوع الشمس وعند غروبها... عند ذكر شمس الحقيقة الأزلية عند ذكر الفراق والشوق والطلب... عند أمل الوصال لست أنا وحدي الذي نشد شمس الدين بل يُغنيه العندليب من الرياض والقطا من الجبال فالنهار المضيء هو شمس الدين... والفلك الدوار شمس الدين... وشمس الدين هو كأس جم... وشمس الدين هو البحر الأعظم... وشمس الدين عيسوي الفن وشمس الدين جمال يوسف تبدل جلال الدين إلى وجود فني مطلق... شعر وموسيقى بل موسيقى يُعبر عنها في قالب الشعر، إن شمس الدين لم يمت بل هو خالد في الحياة:

«من الذي قال: مات ذلك الخالد أبدا؟!

من الذي قال: مات شمس الأمل؟

إنه عدو للشمس صعد إلى السطح وأغمض عينيه وقال: ماتت الشمس».

ولم يغب عنك يا سيدي ومولاي جلال الدين الرومي حبيب قلبك هذا التبريزي لحظة ولم تقعد عن ذكره وكأنه يشاكلك ذكره... ذكر الله أو وكأن ذكره يخالط ذكر الله عندك ذكره!!

أتدري أني أعيش ذات اللوعة والوله في عشقي لها... إني أحياها وتحياني... إني مأخوذة بها وهي مأخوذة بي عشقاً لا شيء كمثله عشق، إن عشقي لها يماثل عشقك لحبيبك وقرّة روحك شمس الدين التبريزي، وعندما أقرأك فيه في (المثنوي) أقرأها كأنها هو وكأني أنت!!

أنت تبكيه ميتاً وأنا أعيشها روحاً حيّة في روحي وأتطهّر وضوء عناق روحها في روح صلاتي!!

إني أغلي عشقاً فيها وهي تغلي عشقاً فيّ وكنا نحترق في غليان عشقنا ولكننا نحيا حياة عشق تحترق ولا تموت!! إني أحترقها وهي تحترقني ونبقى شمعة تضيء روحينا!!

وترى في أنين الناي، سيدي ومولانا جلال الدين الرومي، «إن الجسد ليس مستوراً عن الروح ولا الروح مستورة عن الجسد، لكن أحداً لم يؤذن له بمعاينة الروح».

ولكن روحينا وجسدينا يتعريان لي ولها... فأفيق فيها روحاً وجسداً وهي تفيق فيّ روحاً وجسداً دون أن يأذن لنا أحد... إنّا نأذن لأنفسنا ولا ندع أحداً يأذن لنا حريتنا ومعاينة روحينا في عريهما!!

نحن أحرار الجسد والروح في السر والعلن، في الكشف وفي الحجب. إني أستجليك حيناً وأحتجبك حيناً وأضمرك حيناً وأبعدك حيناً عن ضميري وتأمرنا قائلاً:

«ولتحطم القيد ولتكن حراً يا بني (...) تظل عبداً للفضة وعبداً للذهب؟».

سأحطّم القيد ولن أكون عبداً لأحد، كائناً من كان، ومن لم يكن لا في السماء ولا على وجه الأرض... فليس العابد عبداً وإنما حر فيما يعبد وما لا يعبد. أليس الجسد من تراب؟! لماذا لا تكون الروح من تراب؟! وهي في الجسد... أليست من تراب الجسد؟!

أتكون مادة الجسد خلاف مادة الروح وهما من تراب «من التراب... وإلى التراب» جسد وروح أم جسد بلا روح؟!

تقولون تفر الروح من الجسد عند الموت ويبقى الجسد بلا روح... تفر إلى أين؟! أليس الجسد والروح غير مفصولين عن بعضهما البعض؟!

وكما يلي في سفر (المثنوي): «وليس الجسد مستور عن الروح ولا الروح مستورة عن الجسد لكن أحداً لم يؤذن له بمعاينة الروح». وهذا ما ينتفي عندي وعندها، كما ينتفي عندك وعند شمس. فأنا لست مستورة عندها جسداً وروحاً وهي ليست مستورة عندي جسداً وروحاً!!

وأحسب أنك، سيدي ومولانا جلال الدين الرومي، تتماهى روحاً وجسداً غير مستور. وشمس الدين التبريزي في غليان عشق تغتلي فيه ويغتلي فيك بحثاً عن الله!!

كلنا يعيش إشراقه، أنت تعيش إشراق الروح وأنا أعيش إشراق الجسد... روحك تشرق في الغيب، تهذي، وروحي أيضاً. هذه إشراقة الجسد... أنا وهي، نتشارق الروح بالروح والجسد بالجسد في غيبوبة هوى الروح والجسد على حد سواء، وتتشكل في حقيقة واقع لذة الحياة وشهوة غليان العشق فيها عندما نغتلي عشقاً في بعضنا يأخذ بنا الغلي حتى يصبح بخاراً ناعماً يفيض في إناءينا... ويسترخي بنا الفيض فنغمض عينينا في روحينا... وكأن الله يرانا ولا نراه... أو وكأننا نرى الله ويرانا... فنحن لم نقم بمعصية لا يرضاها!!

إني أحترق جهنّمها... كما تحترق أنت جهنم شمس... نار العشق عندنا تصبح برداً وسلاماً في عرينا... في الشتاء يصبح العري دفئاً وفي الصيف يصبح العري برداً... وتجدنا صيفاً وشتاءً نلتحم عشقاً روحاً وجسداً فالله المعبود وحده جسداً وروحاً في كل الفصول... فليس لمثل عشقه شيء وهو البديع الفائق اللذة في داخل عشقنا عندما نلتحم فيه ويلتحم فينا لذة فائقة للعالمين!!

النفس مرآة الجسد

تأملت عواطف نفسها في نفسها والمرآة أمامها... وساوت من هندام صدرها الذابل... ورفعت ذبول رخوياته بحضني كفيها... ومطّت شفتيها في مجهول الناس... و ساءلت نفسها تجليات ظنونها في ذاكرة كتاب (علم نفس الجماهير) لسيغموند فرويد... وقالت: إذا كانت الحياة في مقادير تدابيرها! فالمقادير هي أيضاً في حياة تدابيرها... فسبحان مقدّر أحوال الرجال في أحوال النساء... وأحوال النساء في أحوال الرجال!! وأضافت متسائلة: هو منّا ونحن منه؟ وكان المسيح ندياً ليناً هشّاً بشّاً كريماً رحيماً ودوداً عطوفاً متعاطفاً رضياً مرضياً سموحاً متسامحاً طيب المعشر جميل المظهر يفيض بعذب المودة... عَبِق الرائحة كريم النفس... وما أحسب صفاته إلا في متداخل صفاتنا فيه وصفاته فينا... إن عشرة معاشرته في عشرة المعاشرة عندنا... وإن صفة الأنبياء تمكن

ملامسة تجلياتها فينا... إني أتجلى روحه في روحي... إن روح المسيح عندي هي الأكثر إنصافاً لنا نحن معشر النساء، هو منصفنا وكأننا نتناصفه وكأنه يتناصفنا إني أمتثله في مثلية ذاتي وأماثل روحي في روحه...

كلمة (مثلية) في التشابه بين الرجل وبين المرأة، وما المثلية إلا نسيج جينات التكون في الحياة بين رجل ذكر وبين امرأة انثى... لماذا يرجمونها بالحجارة؟! وقد تمجّدت في نفسها بالمسيح: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر».

أيّعاب الله في خلقه؟! أم أن خلقه يعابون فيه؟! هكذا خلقها الله بين بينها وبين بينه... وهكذا خلقه الله بين بينه وبين بينها!!

إنها حجة الخالق في عدل المساواة في التشابه وفي تجاوز المثل بالمثل... في المساواة بين الرجل والمرأة سواء بسواء!!

حكّت عواطف شعر رأسها وتلمست بويصلاته بأطراف أظفار أصابعها وقالت وكأنها تحدث أحداً في نفسها... وكان يقول، أم إني أتوهم أنه يقول، تعني (فرويد):

واقع الحركة الفيزيائية يدلل على حقيقة نمو التخلق الجيني في تاريخية التكون البيلوجي للذكور والإناث على حد سواء: إنهما في البدء من أصل جينة واحدة أُنثوية، و لضرورة النمو التاريخي في التطور انقسمت الجينة الواحدة إلى جينتين، جينة أنثى وجينة ذكر

وقد أخذت ضرورة التلاقح التاريخي في الاستواء والنمو والتطور لضرورة التكاثر وتسهيل مساراته التاريخية في الحياة!!

وتأخذ نكهةالإنقسام الجيني شميم نكهة التشابه في الرجل وفي المرأة وعندما تقترب امرأة من رجل تشم فيه رائحتها وعندما يقترب رجل من امرأة يشم فيها رائحته... ولا يخطئ المتأمل أبداً شميم الله فيهما... أليسا هما عيال الله؟! أليسا قد تشكلا من النطفة ذاتها في الخلق «من طين لازب ؟؟... حكّت عواطف أديم زندها وقربته إلى أنفها لعلّها تشم الطين فيها وقالت بينها وبين نفسها: الزمن يغير البشر فكيف لا يغير رائحة الطين فيهم!!

عصبت عواطف رأسها بوشائع من صوف سوداء لطرد وجع رأسها الذي يعاودها كلّما أمعنت في التفكير، وتأملت نفسها في المرآة وهي تحرك رأسها يميناً وشمالاً فتتراقص أطراف وشائع عصابة رأسها...

وعندما لا تجد عواطف أحداً تتحدث معه تذهب إلى المرآة لتتحدث مع شياطين نفسها وتدعوها للسمر معها ليلاً... وتقول النفوس: مسكونة بالشياطين... وترد على نفسها: والملائكة أليس لهم مكان في نفوس البشر... أحياناً يأخذون أماكنهم في نفوس البشر إذا هربت الشياطين منها... الملائكة يخشون الشياطين أم الشياطين تخشى الملائكة... ترى عواطف نفسها وتتعرف إلى

نفسها وتقف على حقيقة نفسها أمام المرآة... وتقول لنفسها مالا تقوله لأحد غيرها... اسم المرأة انشق من المرآة... أم أن اسم المرآة انشق من المرأة... المرأة مرآة الرجل أم الرجل مرآة المرأة... فالتعاكس موجود في المرأة وفي الرجل... أليسا من روح تعاكس مرآة واحدة؟!

الرجل يعرف نفسه من خلال المرأة، والمرأة تعرف نفسها من خلال الرجل... أمن هناك اشتق في اللغة إسم المرآة من المرأة أم العكس؟!

إن إيماءات المرأة في الرجل وإن إيماءات الرجل في المرأة: إنهما من صبغة واحدة «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة». وأضافت من عندها: ونحن فيه مختلفون!!

وتفيض عواطف في تاريخية أحاسيس توهجها وترى الوهج الجيني التاريخي يشدها إلى التماهي في الجينة الأولية والأساسية ذاتها التي انقسما عبر التاريخ منها... في تجليات عشق وحب ومحبة بين رجل وامرأة: في وهج التجاذب وفيض تجلياتهما الجسدية تراهما يشدان بعضهما بعضاً ويتداخلان في بعضهما بعضاً ويتماهيان ذوباً في بعضهما البعض كأنهما يريدان العودة إلى أساس انقسامهما الجيني... ما أشد جاذبية الحنين في جسديهما للعودة إلى أساسهما الجيني!!

انتفضت عواطف بروحها في روح جلال الدين الرومي ظناً فيما يقول: «وليكن قلبك نقياً تماماً كما المرآة... تلك المرآة التي لا تحتوي صورة ولا حياة أفلا تريد قلبك نقياً صافياً مثلها؟!

إذن، فلتمح وجودك ولتبصر الحق المبين منعكساً في تلك المرأة... إن كان المعدن يمكن أن يصقل ويجلى حتى يصبح في صفاء المرآة... أفلا تجلي مرآتك أنت؟!

ولتعلم أن بين قلبك والمرآة فرقاً واحداً لا غير... ان القلب خافٍ للأسرار، بينما المرآة تستجلي نفسها في مرآة نفسها»

وترفع عواطف رأسها إلى السماء بحثاً عن المجهول في الله... ففي المجهول يسرح الصيادون لصيد طريدة من طرائد الحقيقة... تركت نفسها تسرح في سماء الله الواسعة بحثاً عن الله، ولمّا تحسّست ذاتها وأشياء ذاتها وجدت الله في ذاتها!!

الله في ذات رجل أم في ذات إمرأة؟! الله منذ الأزل في ذات جينة مادية البدء للذكر والأنثى، ولمّا انقسمت الجينة إلى جينتين في عمق التطور في التاريخ انقسم الناس في الله!!

وكانت تصرخ عواطف في هوس مجنون: تعالوا نعود إلى ذات الجينة رجالاً ونساءً لنتّحد في الله... فالله في وحدة وجود قِدَم وجود مادية الجينة الأولى جينة أُنثى وليست جينة ذكر!! وتذكرت شيئاً في القرآن: «وليس الذكر كالأنثى».

وسكتت عواطف وهي تهرش شعر رأسها متناقضة مع نفسها... وكانت تحتجب بذاتها في ذات جلال الدين الرومي: «وكلمني تعال ولا يهم من أنت ولا إلى أي طريق تنتمي تعال حتى لو كنت أخللت بالتزامك وتعهدك ألف مرّة تعال لنتكلم عن الله». وقالت يا سيدي ومولانا جلال الدين الرومي يا ليتك أضفت وقلت: تعال لنتكلم عن المرأة... فهي مدفونة الهوية في هوية الله ذاتها!!

وراحت عواطف تحتجب رويداً رويداً في ذات جلال الدين الرومي كأنها (...) في ذات الله وهي تقول: طريق الانتماء يتحقق في العودة إلى الجينة الأولى في كيف بدأ الإنسان يمشي على أرض الله الواسعة!!

أأنت ما تدعو إليه يا سيدي يا جلال الدين أم أن هَذْي التأويل يأخذك عني في البحث عن الله فيما لا أفهمه ولا أدريه!!

شرعية البدء في الأولوية أولوية الأنثى وليس أولوية الذكر... وهو ما يوفر لنا نوراً في اكتشاف حقيقة بدئنا للوصول إلى اكتشاف حقيقة الله فينا!!

وتماماً كما يقول سيدنا المعلم الرومي تقول لنفسها عواطف: «إن الشريعة كالشمعة توفر لنا نوراً لا يقدّر بثمن، لكن يجب ألا ننسى أن الشمعة تساعدنا على الانتقال من مكان إلى آخر في

الظلام، وإذا نسينا إلى أين نحن ذاهبون وركزنا على الشمعة فما النفع في ذلك؟!»

وكانت عواطف تنزع هندامها قطعة قطعة فيتلاصف جسدها متماوجاً في المرآة... تماوج جسد لا تخطئ إيقاعاته إيقاع همس الموسيقى في الجسد وهمس الجسد في الموسيقى... وما يتفاعل ذوب روح عارية في ذوب الموسيقى بحثاً عن الله... هي بين الإيمان والإلحاد تبحث عن الحقيقة ولكنها غير تقليدية، فالإيمان التقليدي للجسد وليس للروح، والله نصل إليه بالروح عارية من الجسد!!

وكانت تقول إني أبحث عن روحي فيك، أستجليك، فإن استجليتني فقدت روحي فيك، وإن استجليتك تماسكت روحي فيما أستجليه من روحك في روحي وفي روح الله!!

هكذا يمكن استجلاء ذوبان لازوردية الروح في لازوردية روح الله وفي الصلاة على إيقاع الموسيقى والرقص قياماً وقعوداً في مغفرة الحياة بثوابها وخطاياها سلام جنح مغفرة حتى مطلع الفجر!! فالخطايا من الثواب... والثواب من الخطايا... ولا ثواب بلا خطايا ولا خطايا بلا ثواب!!

قالت عواطف لنفسها وهي تشخص في المرآة ووشائع خيوط نفسها تتثنى في نفسها فتفل خيوطها خيطاً... خيطاً، وتفليها وشيعة

وشيعة، كأنها تبحث عن شيء يشدها إلى شيء تدريه ولا تدريه... وهي تُصيخ إلى إيقاع رنين أوتار الموسيقى في نفسها وتستل خيطاً خيطاً من وشيعة نفسها وتذيب نفسها في موسيقى نفسها وتماوجها بجسدها فتصبح ذوب موسيقى تتماوج بنفسها عارية أمام المرآة، تحرّك يديها برشاقة متماوجة في مُوَيجات نفسها وتنقر بأطراف أصابع رجلها الأرض، وتنحني بجسدها حتى يكاد رأسها يلامس الأرض، وتنهض رويداً... رويداً... في نشوة وحشية شهوة الجسد في الموسيقى... فالموسيقى تتوحد بين ذكر وبين أنثى... إن جنس الذكر في الموسيقى أنثى... وإن جنس الأنثى في الموسيقى ذكر... أليس الذكر كالأنثى؟! هذا قول يناقض «وليس الذكر كالأنثى»... تناكف نفسها بنفسها: فأي القولان موسيقياً أقرب إلى الله... أيحب الله الموسيقى؟! الله محبة... والموسيقى تؤلف المحبة بين الناس وكذا الله... والذي لا يحب الموسيقى لا يحب الله...

أتدري سيدي ومولانا جلال الدين الرومي: المتزمتون الظلاميون التكفيريون يكرهون الموسيقى ويحبون الله: أيحبون الله؟!

وإنهم يـدورون في دوائـر تزمتهم وظلامهم وتكفيرهم للآخرين... أتراهم وهم يدورون مصلوبي الأجساد دراويش أو كالدراويش... أَلَهُم في الله شيئ!!

إني مقيدة في الزمن تقول عواطف مخاطبة الرومي... كيف لي أن أخرج من دائرة الزمن... أبإستقامة الجسد خارج التثني وارتعاش الصدر وتماوج الردف والدوران غزلاً على ايقاع نقر الدّف، أستطيع أن أخرج من دائرة الزمن لأدخل في دائرة الحب؟!

أن تعطي قلبك للريح بشارة... كما تقول - سيدي ومولانا جلال الدين الرومي- وتضع قلبك على طريق الآلام لن تخرج ولن تُخرج أحداً خارج طريق الآلام!!

الدوران رقصاً لا يُغري إلى الحب... ما يغري إلى الحب: غزل التّلفت والتوثب والبحث خارج دوائر الدوران وحده الذي يُغري المحبين إلى الحب!!

فالله خارج دوران المريدين من الدراويش في البحث عنه...

إن الروح ينعشها الهواء الطلق وتُزهر زنابقها ويفوح أريجها خارج الدوائر المغلقة بالدوران... وقد جرّبت... وكلما دُرت دار رأسي واسودّت الدنيا في عينيّ وخيّم الظلام على روحي... ألأني لا أجيد الدوران كالدراويش؟!

الروح لا تطيق الظلام ولا الظلمة... وهي طليقة كالحرية، هكذا استوت أو هكذا سوّاها الله...

ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها... لماذا فجورها لم تكن تقواها؟! والنفس لا يمكن كبتها في دائرة الدوران وفي

أعذب تجليات سكرات خَدَر دوران عقيدة الدوران في أشياء موهومة بأشيائها!!

الروح هي الحياة... بل هي المحبة في الحياة وعشقها الأزلي... وتراها تفر من جسدها يوم يحكم الموت على جسدها بالموت... الروح في جسدها ولكنها بلا جسد... وترى الموت يمد يده ليخنقها... إلا أنها تفر من بين أصابع الموت رافضة ومستنكرة عليه موتها!!

فالروح في روح رواحها... وهي تروح ولا تأتي... كل شيء يأتي ليروح... إلا الروح تروح ولا تأتي... إذن، كيف أتت؟!

تسأل عواطف نفسها وتقول:

إني أجدك وأجد نفسي سيدي ومولانا جلال الدين الرومي أمام السؤال الأزلي الكبير الذي تبحثون عنه في حكمة رقصة الدوران في عقيدة تجلي الروح في الروح في البحث عن الله... ويبقى السؤال يؤرق الدنيا كلها: أين الله؟! أدري سيدي ومولانا جلال الدين الرومي انك وجدته «وهماً» متجلياً في روح القدس الذي تطيب روحك هانئة في نعيمه... حتى كادت روحي أن تهذو هذي روحك، . ألِهذي الروح جلال... أيصبح الجلال في الهَذي أم في الروح؟!

وكأنك تقول سيدي ومولاي جلال الدين الرومي أن هذي

روحي على صواب وهذي روح الآخرين على خطأ!! وهل في الهذي من صواب؟! عندما نعجز عن الوصول إلى معرفة الحقيقة نهذو... ونهذو وحسبنا أن تتكسر محاولات هذينا دون أن نمسك بالحقيقة إلا بهذينا...

أيمكن مسك الحقيقة بالهذي؟! سيدي ومولانا جلال الدين الرومي طبت هذياً فينا وطبنا هذياً فيك!! حتى أصبحت المرآة وثن هذوي الذي يُنقّي تأمل ذاتي في ذات الله في وثن مرآتي وكأنه منعكس في المرآة وفي ذاتي، كأن المرآة أصبحت مرآة في ذاتي؛ وكلما كدرت وشاه صفاء لمعها أقوم بمسحها وأعيد لمعها في لمع ذاتي... الحياة تُلمّع الذات أم الذات تلمع الحياة؟! الذات في لمع الحياة والحياة في لمع الذات... فإذا لمعت الذات لمعت الحياة... أنت داعية جهبذ يا سيدي ومولانا جلال الدين تدعو أن نمتثلك ونداوم على الضراعة: «يا علام الغيوب... يا كريم العفو ستّار العيوب لا تنتقم منا بذنوبنا وكل ما هو في الكون من أشياء وكل ما هو موجود أبده للروح على ما هو عليه».

ضراعة الخالق أم ضراعة المخلوق؟! ضراعة المخلوق ملموسة وضراعة الخالق غير ملموسة فأي الضراعتين أقرب إلى اللمس... ضراعة الخالق تُلمس هذياً خلاف ضراعة المخلوق التي تلمس واقعاً مادياً وفكرياً!!

هبني أني أتضرّعك في الله تقول عواطف ممتثلة فيك فيه بروحي وجسدي وأرى مثلي كأنثى فيك كرجل مثلي، أأكون خارج ضراعة الخالق وضراعة المخلوق لأنني بين بين رجل وبين بين أنثى... أنا البين بين: خلقني الله هكذا بين بين... أخالقي الله أم خالقي الشيطان؟! إني أدعوك أن تخرج من قبرك وتحثو في أفواه أعداء المثلية والمثليين التراب... ما أردت هذا لنفسي أن أكون بين رجل وبين إمرأة... وإنما طبيعة الخلق أرادته لي كما أرادته لغيري!! أنحن غيرنا... غير الآخرين... أم الآخرون غيرنا؟!

لا غير فيّ مثل غير الذي فيه... إن غير ما فيه فيّ وغير ما فيّ فيه... وإن البحث عن حقيقة الآخر... يفقد الباحث حقيقة البحث عن الله...

وعجبي إني أراك تبحث في بطون مجلدات كتبك عن حقيقة الخالق في حقيقة المخلوق... وأعجب أنّك لن تدركه لأنك لا تدرك حقيقة المخلوق... ولا يدرك حقيقة المخلوق إلا الخالق وليس المخلوق!!

والمخلوق كما أعجب يدرك حقيقته في ذاته خلاف الخالق الذي يُدرك حقيقته وحقيقة المخلوق!!

كم دُرت سيدي ومولانا جلال الدين الرومي... ودارت دراويشك وما برحت تدور... ويوم انتهى زيت السراج عندك

توقّفت عن الدوران... ومازال الدراويش يدورون... ويدورون... وما زالت الدنيا تدور... وتدور!! وعند القيامة تدق ساعة توقف الدنيا عن الدوران ويأذن الله بقيام توقف القلوب...

وأحس بنداء في الداخل يهتف: (وحدوه) فأردد بيني وبين نفسي وحده لا شريك له...

وعندما أتلقّت في (المثنوي) تقول عواطف، أحسب أني أحسب فيه شيئاً من الشرك في الوحدانية...

الشرك ضمن العقل أم خارج العقل...ازدراء العقل وجعله طي الروح عين الشرك في استحضار الله في الملموس وخارج الملموس... أنك تلامسه في محطات كثيرة من محطات قطار «المثنوي»، إني ألمس بأحاسيسي هدير مساره على سكة فيض ضياع الروح في متاهات غيوم وسحب مُربدّة في الفضاء فأرجع إلى الحقيقة المادية التاريخية الملموسة عقلاً... إلا أن شيئاً لا أدريه يأخذني أخذاً إلى «مادية» الروح في مادية الجسد فأتحسسها ولا أجد هباءها، وأسأل أهباء الروح في المادة أم هباء المادة في الروح... ويأخذني الضياع فيض متن رياح صرصر عاتية في متن «المثنوي»، حين يكون ضوء الشمعة في ضوء النهار يصبح بدراً ولا جدوى لضوئها إلا أن جدواها في الظلام عندما يختفي النهار في جنح الليل ولا قيمة لشعلة الشمعة أمام شعلة الشمس إلا عندما تغيب الشمس!!

إن الأمواج تماوجني تقول عواطف، فأتدافع عذب لهاث لذَتها... موجة... موجة: أنثني فيها وتنثني فيّ... فنتثانى متدافعتين لجيج بهجة موجاتها... هي تدفعني وأنا أدفعها وكأننا نتدافع متن «المثنوي» موجة... موجة في متن روحينا... فأثنيها وتثنيني عذب ماء الحياه...

أتدري سيدي ومولانا جلال الدين الرومي، وأنا أستجلي الأجزاء الستة من «المثنوي» أفيق على نفسي فيك وكأن السحر يستجليني قمراً ساطعاً فيها... فأتحسس قمرها وتتحسس قمري... كما تتحسس قمر شمس الدين التبريزي... ويتحسس قمرك: فالشمس تتحسس القمر وتُضيئه بضياء نورها... وبالأحاسيس أقمار تسطع في أرواحنا في مدارات متن «المثنوي» في البحث عن الحبيب «الله» المجسم سحراً في ضجيج الخيال...

تقول لي إني مسحورة فيك... فأقول لها وأنا مسحورة فيك أيضاً... وأتساءل: المسحور فاعل أم مفعول به؟! ولكن ما الفاعل وما المفعول به في علم اللغة: أليسا هما في حقيقتيهما (فعل) في مثنوية معنى عناق عري جسديهما؟!

ولكن ما «المثنوي»؟! تماوجت الآراء في موج المعنى ولم تجد ميناءً واحداً لها لترسو فيه!! أهو في معنى ثنائية الخالق والمخلوق؟! أم في ثنائية مثليين... ؟! أم في ثنائية مثل ومثل، أم البحث عن المفقود في الثنائية بين الروح والمادة؟!

أنتم... من أنتم؟! معشر المتصوفة المتجلببين بالشوك... كأن الحياة شوك؟! إني أتلذذ بشوكها... وأعيش لذّة الشوك فيها!!

ألست أنا المجنونة في «المثنوي»... أأكون منكم؟! قد أكون منكم وقد لا أكونكم... أنا مجنونة الجسد وأنتم مجانين الروح: لا بأس طالما الجنون يوحدنا... إلا أني أستفيق أحياناً فأراني في ذات جنونكم في علاقة الروح بالجسد!!

وقد يأخذني الجنون فأرى في «المثنوي» تجاذب معنى الجنسين في فيض مثليتهما في التماثل: تمثيل الجسد في الروح وتمثيل الروح في الجسد... إني أمتثلها في جسدها وروحها... وهي تمتثلني في جسدي وروحي: إنّا نتبادل تماثل طعم مثليتنا في وحدة نبت الجينة فينا!!

إني أتجافلك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي جفلاً في «المثنوي» المعنى... إلا أن ميولاً داخلية تميل بي روحاً تتثنى متيمة ولهاء ضوع فيض رائحة القطوف الزكية في «المثنوي» فأغمض عينيّ أحياناً فأمتثل مثليتك في مثليتي... فأستنكفك وأستنكف فيك «المثنوي» سفراً: فلنا مثليتنا ولكم مثليتكم، على باب لكم دينكم ولي دين... إلا أن هذا لا يثير الكراهية بيننا وإنما نرى فيه شيئاً يوحدنا: ألسنا من ذات الجينة المثلية الواحدة؟!

فيض الوعي في اللا وعي

وما برحت أُفاوض نفسي فيضاً في نفسها وأتساءل، تقول عواطف: هل الروح تفيض والجسد لا يفيض، أم الروح تفيض في الجسد... وتتلاطم أمواج الروح في الجسد وأمواج الجسد في الروح ويستوي فيض الخالق في المخلوق وفيض المخلوق في الخالق؟!

هي... أقرب إليّ منه... إني أفيض فيها وتفيض فيّ... نحن نتقايض عذب الحياة ولذة شهواتها في تماوج الجسد في الجسد وتماوج الروح في الروح فيضاً أبدياً أزلياً في البحث عن الحقيقة التي كلما أوشكت لمسها فرّت متماهية بين أصابع نفسي دون أن أمسكها!!

إذن، ما الفيض؟!

الفيض فيض الروح في النفس خارج الجسد!!

الفيض حالة روحية غير عاقلة في هَذْي الروح في النفس

والخروج عن الوعي المادي والفكري، فكيف ندرك حقيقة الله والعقل مُغيب في فيض هذي الروح في النفس؟!

أنت أدركته سيدي ومولانا جلال الدين الرومي فيضاً جللاً في خصوصية جلل الروح في النفس فيضاً حتى السماء...

إن لكل نفس ملكة خصوصية فيض روحها... إن هذا التباين في الفيض ما حقيقته وما مغزى تباينه؟!

تباين نجد فيضه الأكثر في المرأة وليس في الرجل من أن واقع مشاعر المرأة أكثر رقة وأكثر عمقاً في فيضها، ارتباطاً بواقع أسبقية بدء تكونها الجيني في التكوين...

إن جلوة الروح في روح الفيض هي انعكاس فيض لذّة الحقيقة النورانية التكوينية في التماهي عند من تضيء نورانيته في نورانية الله!

إن كل جزء في فيض روحيهما بينهما هو ما يندرج عند قولك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي:

«انعكاس الحقيقة النورانية تضيء كل مكان وانعكاس الظلمة يعم كل مكان وكذلك صورة العبد المؤمن كلها نور لكن صورة غيره ظلام وضلالة».

ولكني مترددة تقول عواطف، وأحياناً أفيق على نفسي ولا أجد فيها ذرّة ايمان... فأرى انعكاسات نورانية روحي تشع في

مرآة نفسها وفي مرآة نفسي أني هي وليس هو نتجاذب لذّة جسدينا في تلاحم أمواج روحي في روحها وروحها في روحي، وبتركها روحها تنزف دم روحها!!

لماذا لا نتطبع طبيعة الحياة ونعايش طبيعة سننها... لماذا نعترض على طبيعتنا التكوينية ونلعنها؟!

إني هكذا تشكلت جينياً كما خلقني الله... أهو شكل لعنتي أم أنتم افتريتم عليه وشكلتم صبغة لعنتها في صبغتي؟!

إن نزيف ميول عارم يشدني إليها... وليس إليه... إني أعيشها وتعيشني... فعشه أنت ودعه يعيشك واتركني أعيشها وتعيشني...

من قال إن الاستثناء لعنة؟! أنحن استثناء؟! إننا استثناء في خصوصية استثنائيتنا التي نكتنفها ولا تكتنف أحداً غيرنا!!

إن الاستثناء زلال أبديتنا نحن دون زلال الحياة وقابلية بهجتها في عظمة الاستثنائية عندنا!!

الله استثناء... ليس كمثله شيء... ونحن استثناء في استثنائيته ليس كمثلنا أحد في مثليتنا...

أنا هذيك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي... أم أنك في هذي زُلال استثناء هذينا المثلي...ألروحنا خاصية خلاف خاصية الآخرين؟! كل روح في استثنائيتها إلا أرواحنا تراها ذوب عذوبة

خالصة تشد بعضها بعضاً في أبدية عذوبتها... حتى أن أرواحنا تسيل عذوبة في بعضها وتستوي لُجّة عذوبة لا نهاية لعذوبتها!!

أنت سيدي ومولانا جلال الدين الرومي تتلذّذ عذوبة الغيب في الواقع ونحن ذوب عذوبة جسد الحياة نغلي غليان اللذة في أجسادنا وأرواحنا...

تعال سيدي ومولانا جلال الدين وخذ بطرف إصبعك وتلمّظ عذوبة ذوبنا وقس بين عذوبة الحياة فينا وعذوبة غيب فردوس حور العين... فأي العذوبتين أعذب عذوبتنا أم عذوبة الغيب؟!

عذوبة الغيب هذي عذوبة... وعذوبة الجسد هذي روح!!

عندما أصحو على حالي في لذة تراعش روحي في روحها أمسكها ولا تمسكني... وتمسكني ولا أمسكها لا أحد يُمسك بالروح فهي ليست لإمساكها شيئاً!!

إنها لعبة الجسد في الروح ولعبة الروح في الجسد والتماهي هذياً مباركاً في ملكوت الغيب!!

أقرأك في ملكوت غيب كتاب «المثنوي» وأغيب فيك هذي غيب وأتصفح كتاب ذاتي صفحة صفحة فأمسك بوهم الحقيقة في الروح ولا أمسكها في الجسد!!

ويأتي السؤال الكبير... ما الروح وما الجسد؟!

الجسد واقع الروح والروح غيب الخيال في الجسد؛ وأتلفت

حولي وحولك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي ممسكاً بكتاب «المثنوي» ولا أمسك شيئاً يلامسني أني أبحث فيك عن شيء يلامسني أحترق فيه ويحترق فيّ... ألويه ويلويني فلا أجد شيئاً حولي وحولك: كأننا والماء من حولنا... قوم جلوس حولهم ماء...

أتحسب أنك تبعث في أحاسيسي شيئاً من لا شيء فأحسك توضح بالتواء لتقول كأن الروح ذاتها تعود مرة ثانية في الجسد، ولكن ليس في الجسد الأول ذاته الذي فرّت منه فتسقيه عذب ماء الروح خارج التاريخ فيما يسمى بعودة الروح وبعودة ماء الروح!!

وفي صبوة ذاكرة الروح هناك أرواح لا عودة لها وأرواح تعود لتبحث عن جسد يلائمها لتعوج في روحه وتفجر طاقاتها الروحية في جسد طاقاته!!

فالتاريخ له خصوصية مساراته المادية والفكرية... في الجسد ماديته وفي الفكر روحيته لجمع من البشر وفي مسار متوثب متجدد متعرّج إلا أنه في استقامة متحولاته التاريخية النوعية... فالتاريخ جسد وروح: في الجغرافيا مادة جسد وفي التاريخ فكر روح والتاريخ في جسد الجغرافيا حركة زمان ومكان في جدل التجليات المادية والروحية: فالتاريخ يتجدد في الجغرافيا والجغرافيا تتجدد في التاريخ كأن التاريخ روح والجغرافيا جسد والتاريخ في الروح:

«انعكاس الحقيقة النورانية يضيء كل مكان وانعكاس الظلمة يعم كل مكان كذلك صورة العبد المؤمن كلها نور لكن صورة غير ظلام وضلالة».

هو ذلك ما تتجلاه وتستجليه خارج وعي التاريخ وأنت في التاريخ جسد وخارج التاريخ روح وهو ما يأخذ إلى حقيقة الهذو في التحليق خارج التاريخ!! في أقانيم الدراويش والمتصوفة خارج سقف السماء... أللسماء سقف؟! وما سقف الأرض؟! دوران الجسد في دوران الروح على إيقاع البحث عن المجهول لا سقف لسمائه ولا لأرضه... إلا في الفيض جهلاً و بحثاً عن المجهول!!

جمال الروح...

أنت تهيم فيه... وهو يهيم فيك... هيام جسد أم هيام روح؟! أم هيام روح في جسد في آن... أيمكن فصل هيام الجسد عن هيام الروح... أيمكن جماع روح خارج جماع الجسد... أيمكن جماع روحين خارج جسدين؟!

أَتَغَـار الروح من الجسد... أَيَـغَـار الجسد من الروح في اعتزال جماع الروحين أو اعتزال جماع الجسدين؟!

أتـَغـَار سيدي ومولاي جلال الدين الرومي زوجتك (جوهر خاتون) عندما تدخل الدار وتغلقها عليكما أنت وشمس تتبادلان عناق الروح بالروح خارج الجسد وخارج التاريخ كما تدعيان...

أيمكن أن يطمئن خاطر (جوهر خاتون) أم أن خاطرها يتفاعل غريزة غيرة في حريق غيرة النفس... وأحسب أن (جوهر خاتون) تحترق أسـىً خارج الدار في نفسها وأنت في الدار مع شمس الدين التبريزي... وهي تفور وتفور حتى نهاية الغليان فتصير هباء بخاراً يتطاير من خلال دنِّ جسدها!!

أتعرّى الروح كما يتعرى الجسد في عنف لذّة صهد جاذبية التجاذب الروحي... أم أن الروح خلاف الجسد عارية الطبع؟! وكنت أتخيلها كالجسد تنزع ثيابها قطعة... قطعة، وتغتسل بعطر الجسد في صخب لذّة ذوب بهجة جماع الروح في الروح!!

أمثلية الجسد مثل مثلية الروح؟! أم أن مثلية الجسد حرام... وأن مثلية الروح حلال؟!

إن هذا الفصل التعسفي بين الروح والجسد في خصوصية أبدية تجاذب لذّة الحياة يثير حيرتي، وأنت سيدي ومولانا جلال الدين الرومي تلوذ بي لوذ تجليات هيام الجسد خارج الروح وهيام تجليات الروح خارج الجسد... حتى أصبحت ضوع أنين وجع تتمزق في نفخ قصبة ناي!!

أأنين الروح في الجسد... أم أنين الجسد في الروح؟!

الناس الجسد والأنين الروح... من ينغم أنين الناس في الجسد نفح الروح أم نفح الجسد؟!

وكانت (...) تنفحني جسدها... وأنفحها جسدي فينفح جسدي روحها وتنفح روحها جسدي فنصبح ضوع لذّة جسد وروح لا انفصام لها بيني وبينها!!

إني أتجسدها الروح والجسد على حد سواء... وهي تتجسدني روحاً وجسداً فنصبح في غمرة لذّة الحياة في الجسد والروح!!

ولا حياة في جسد بلا روح... ولا حقيقة لحياة روح بلا جسد!!

في البدء شكّل الجسد الروح ومن ثم شكلت الروح الجسد...

إن المادة (الجسد) لا تفنى ولا تستحدث وليس لها خالق إنها خالقة نفسها بنفسها وكذا الروح كونها لصيق المادة (الجسد) وهي نتاجها وانعكاس لها ولتجلياتها وهي بدء بنية خلقها وتخلقها... فالجسد الروح... وليس الروح الجسد... إن برهانية لذّة الجسد في الروح وفي صحوة أبدية عناق الجسد في صحوة أبدية عناق الروح والعكس ليس صحيحاً!!

الإيمان بالروح والكفر بالمادة متاهة أزلية الجهل والخوف عند الإنسان المثلي وغير المثلي... فالجهل المادي يُنمي الجهل الروحي ويجعل الحياة في جلوة روحانية تجلياتها الروحية خارج مادية الجسد!!

أنتم معشر المتصوفة والدراويش تقول عواطف، ترون في الدنيا نفح روح بلا مادة وفي الآخرة نفح مادة وروح حيث الحور العين والولدان المخلدون...

أستغفر الله فيك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي أن أستبيح فيك إيمانية الروح في الدنيا على إيمانية الجسد!!

إن لكم عقيدة إلزامية الروح ولنا عقيدة إلزامية الجسد...

أنتم تتفقدون لذّة الحياة في الروح... ونحن نتقصّى حور العين والولدان المخلدين في الدنيا... وأنتم تتقصون حور العين والولدان المخلدين في الآخرة: فلكم أرواح حوركم وولدانكم ولنا أجساد حورنا وولداننا!!

أتدري سيدي ومولانا جلال الدين الرومي تقول عواطف، إن الفضول يُتعتعني ثملاً ويثير عندي رغبةً عارمةً من الدراية في أن أقف على حالة ما تدريه في نكاح الروح... وفي الأثر هناك قول للنبي «إنما تنكح الوجوه» ولم أقف على شيء في ذكر «إنما تُنكح الأرواح»...

نكاح الجسد أدريه تؤكد عواطف... أما نكاح الروح في خلوتكما وشمس الدين التبريزي فأنت وحدك تدريه... ما أشّد فضولي في أن أدريه!!

نكاح الجسد ندريه... فما نكاح الروح؟!

وأيكما الإيجابي... وأيكما السلبي... أم أنكما تتبادلان السلبية والإيجابية في غليان صهر الروح في الروح!!

الجسد يستجلي ذريته في الاحتكاك بالجسد الآخر!! احتكاك الروح بالروح أتستجلي ذرية؟!

كيف لها أن تستجلي الذرية وهي عاقر... العقر في الروح والتكاثر في الجسد!!

إيمانية الجسد... وإيمانية الـروح... الإيمانية المادية في الجسد والإيمانية الروحية في الروح!!

في البدء استوت المادة قبل الروح...المادة الأساس فلماذا تجعلون الأساس للروح؟!

المشكلة أنكم تهجسون أبدية الروح خارج التاريخ وتفقدونها ماديتها... نحن في التاريخ ومن التاريخ، نحن حصيلة ضمنية تاريخ الحياة خارج التاريخ... نحن نعرف واقع جغرافية التاريخ في استواء مادية الحياة ولا جغرافيا ولا تاريخ خارج جغرافية التاريخ!!

إن بين الملموس واللا ملموس ملموس... الملموس في التجربة المادية واللا ملموس في التجربة الروحية... أنتم سيدي ومولانا جلال الدين الرومي في حِلٍ من التجربة المادية... وفي التجربة الروحية تُحلِّقون عشقاً في المجهول وترون: «أن العشق قطب الرّحى ومركز الدائرة في حياة الإنسان».

إلا أن حياة الإنسان على الأرض في التاريخ والجغرافيا في الزمان والمكان وأنتم تأخذونها في مدارات المجهول خارج الزمان والمكان في «الخوف من الجليل» وفق سيرة (أبو حامد محمد الغزالي)، وفي أثر دعوته في كتابه «إحياء علوم الدين»، وهو ما يدعو إلى التسليم بالمطلق؛ وقد استنتج منه سلف المتصوفة والدراويش شعار «اللهم دبرني فإني لا أُحسن التدبير»...

إلا أني أراك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي تُدير كؤوس الطـِّلا ودنان العشق بجدارة مقتدر ليس له نظير...

حتى قلت عن نفسك على لسان الحبيب شمس:

«صار الشيخ الفتي بسبب العشق شاعراً

بعد أن كان زاهداً صار خمـّاراً

لا بخمرٍ يخرج من عنب وكرم

فالروح النورانية لا تسقى إلا بخمر النور».

وأزعم أن شأنك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي شأن الآخرين... عندما تقع النفس في شرك مادية الجسد تُرحِّلها متعتعة بخمر مادية الجسد إلى نورانية الروح!!

أنتم تدفعون بالنفس الإنسانية إلى الزهد والخوف والمسكنة خارج الحياة... أي تقومون بانتزاعها من مادية حبها في الحياة إلى روحانية الحب خارج الحياة... تنتزعون الحب من عندها في التاريخ وتضعونه خارج التاريخ!!

ما قيمة الحب، ما قيمة العشق خارج التاريخ؟!! لا قيمة لحب ولا قيمة لعشق الإنسان لأخيه الإنسان إلا في مادية التاريخ وليس في هباء الروح خارج التاريخ!!

كيف يكون العشق قُطب الرحّى ومركز الدائرة في حياة

الإنسان خارج التاريخ والإنسان بلحمه ودمه وحلمه وأمله وروحه في التاريخ؟!

ولكن ألا تتمزق زوجتك المصونة (جوهر خاتون)؟ تقول عواطف، وأنت تراهن من خلف ظهرها شعراً يذوب وجد عشق في محبوبك شمس الدين التبريزي وتقول فيه شعراً بواحاً علناً كأنك لا تبالي بـ(جوهر خاتون)!!

«أنظر ذاك الشكل، وانظر ذاك التنعّم والدّل
ذاك القِـدُّ والخد والساق واليد
أنظر ذاك اللون وذاك الوقار
وذاك البدر المنقّب بالضيا».

قضاء حاجة الجسد (فجوهر خاتون) عندما تفيض غيرة ولا تجد من يطفئ غيرتها قد تصطفي من الرجال أو من النساء في إطفاء غيرتها خصوصاً وهي تفيض غضباً في شمس الدين التبريزي ولا تجد فيه لا دلّ ولا قد ولا خدّ ولا ساق... ما يغري الروح... وقد يرى (جلال الدين) ما لا تراه (جوهر خاتون)...

وكانت نساؤنا، تقول عواطف، تردد حسبي الله ونعم الوكيل، وهنّ يفضن غيرة ولا يجدن أحداً حولهن يطفئ غيرتهن!!

أكانت (جوهر خاتون) تردد ذلك عندما يختلي جلال الدين

بشمس التبريزي ويغلقا عليهما «مزلاج» باب الدار... ولكن من يختلي بمن أجلال يختلي بشمس أم شمس يختلي بجلال... حقاً.

لا أدري أحداً يدري كونهما يجانحان روحيهما خارج منطقة التاريخ!!

وعندما اختفى شمس الدين التبريزي أثراً بعد عين كان جلال الدين الرومي يخاطب قلبه الدّنف الموجوع بفراق شمس الدين التبريزي:

«أيها القلب ماذا حلّ بك
وإلام صار شأنك؟!
ومن ذا الذي يحرمك النوم هكذا في الصباح والمساء؟!
قال القلب حُسن طلعته
ومقلته الناعسة الساحرة
وسنبلة حاجبه
وتلك الياقوتة عذبة عند الأداء
أيها العشق كم لك عند الناس من إسمٍ ومن قلبٍ
وبالأمس أطلقت إسماً آخر عليك
«داء بلا دواء».

بين الجسد والروح

وتستعيد عواطف ذاكرتها وهي في غطيط حلمها قائلة: وفي الأمثلة عند العرب أن (البعرة تدل على البعير)، فقد تدل وقد لا تدل... وقد تكون نباهة قلم الكاتب أكثر نباهة من الكاتب نفسه... وقد يكون العكس (!!!) وقد تطغى جمالية روح المرأة على جمالية جسدها... وقد يكون العكس...

إن الجسد في خصوصية جماليته كما أن الروح أيضاً في خصوصية جماليتها!!

فالجسد يمكن الاستيلاء عليه وملامسته... أما الروح فتتعذر ملامستها والاستيلاء عليها!!

الجسد مادة... والفكر روح... وما هو إلا خارج المادة...

الجسد يُجسد الروح... والروح لا تجسد الجسد... فالجسد يفرز مادة الروح... والروح لا تفرز مادة الجسد... ولا يمكن فصل

الروح عن الجسد أو فصل الجسد عن الروح... إنهما متلازمان في جدل التأثير والتأثر فيما بينهما...

فأتلظّى ناراً فكريةً في سفر جلل كتابكم «المثنوي» بأجزائه الستة: فيأخذني تعسفاً روحاً وجسداً وأنا مشدودة إلى جلل روحه المتوثبة في عرفانية ثقافتها الباطنية الصوفية... وكلما أردت أن أخرج به إلى الجسد يشدني إلى الروح... فالروح الأساس المطلق لديه... ولديّ يكون الجسد الأساس...

فالمرء يصل إلى الروح عبر الجسد: الطريق إلى الروح وليس العكس!!

فكيف أُلامس روح من أعشق بروحي إذا لم أجاسد جسدها... وأتحسس فيه روحها...

وفي سِفْره «مثنوي» كانت تذوب مشاعري وَلْهى في جمالية عرفانيته الشعرية وكانت كل قوافيه تُغرِّد عذوبة عشق ووله...

إلا أني أتجافل متبرمة، تقول عواطف، أمام الآلاف من أبيات الشعر في المثنوي التي تنزف عشقاً وولهاً لشمس الدين التبريزي هذا الدرويش المترع بآيات بينات من الغموض...

وكنت أتنقل بين أغصان بساتين قصائده الغنّاء المثقلة بأزاهير الآس والنرجس والياسمين، فأرى كل صبيب قوافيه تتصابى دنف عشق ووله وتصب في حضن شمس الدين التبريزي... ولا شيء

حتى ولا نتفة بيت شعر للزوجة المصونة (جوهر خاتون)، وكأني بها تتمزق حسرة وغيرة... دون أن تنبس ببنت شفة احتجاجاً على ظلم الجفى الذي لحق بها منذ أن حلّ طائر «الشؤم» شمس الدين التبريزي في بيتها!!

وأحسب أن تفضيل القيمة الروحية على القيمة المادية، تقول عواطف... واقع يأخذ إلى متاهة ضياع الروح خارج التاريخ... وهو ما تعتدُ به أنت يا مولانا جلال الدين الرومي في الثقافة العرفانية الباطنية ومداراتها اللاهوتية خارج مادية التاريخ والجغرافيا!!

إن فصل المادة عن الفكر (الـروح) وتفعيل الروح عليها وتهميشها وإدانتها وتكفيرها وتهجيرها من واقعها المادي وتغييب المجتمع المادي في مدارات الروح خارج التاريخ... هو واقع ما نجابهه من ضياع وجهل وتخلف... واقع تنفرد فيه الحاكمية الروحية على الحاكمية المادية... وهو ما أَخَذَنا ويأخذنا إلى غطيط سبات عميق على شطآن الثقافة العرفانية اللاهوتية خارج التاريخ على حساب النهوض والارتقاء لمجتمعاتنا وفي ذلك امتداد لمقولات لاهوتية عرفانية أكل الدهر عليها وشرب...

بين خاتون وجلال!

بياض جسدها كفلق صبح بهي الصفاء في سماء سمرقند... وشعرها الفاحم السواد تتساقط جدائله حتى شواطئ عجيزتها المدلوعة خلفها... وعيونها المنقوعة في السواد تلفّعت بسحر هاروت وماروت في تطارفها!!

قصيرة القامة مملوءة القد تفيض عذوبة حياء تتدفق ذوباً للخروج من بين شادور يُلملم عافيتها... كان الشادور غطاء يشف ذوب سُكّر جسدها هي من سمرقند وهو ما يعني موطن السُكّر... لقد فاضت ذوب سكر في ذوب شهوة نضج جسدها... كأن ذوب السكر نضج جسدها،... كأن ذوب السكر فيها أخذ يتدفق بين أطراف دَنّ جسدها... فتضع يديها الثملتين لتحريك رمانتي صدرها... وتكفكف راحتيها عليهما كأنها تهمس لنفسها متمتمة: إن لكل كتاب أجل... وتنهدت حرّى قائلة: متى يُكتب كتاب لقائي به؟!

عندما رآها لأول مرة سال لعابه متوجداً ذوب سكرها قائلاً بينه وبين نفسه: يا لفيض رشاقة مظهرها وعذوبة طلّة طلعتها ورقّة إيماءة ذوب تدافع مشيتها كأنها تنقش الأرض نقشاً بإيقاع أصابع قدمها!!

فتنة بياض الجسد في فتنة سواد الهندام... فتنة ليل يغشاه نور أو نور يغشاه ليل فتنة الخالق في المخلوق وفتنة المخلوق في الخالق... وكأن الفتنة تتنفس ترف جمالية جسدها... فسبحان خالقها، قال ذلك بينه وبين نفسه وهو يعيد ميول العمامة بيديه من على رأسه... وكلما اقترب منها ازداد تجاذباً وميولاً في ذوب سكرها...

ارتعشت نظراتها في نظراته وارتعشت نظراته في نظراتها... وتطارف الحب في أول نظرة من نظرتيهما وكأنه خلق لها وكأنها خُلقت له!!

هو جهم الجسد طويل القامة ضخم العمامة يلفها بعناية حول رأسه فتبرز لها قبّة منسوجة من خوص لونها بني فاتح محاطة بلفيف قماش من شاش ناصع البياض فتزيده طولاً على طول قامته وطول لحيته وطول وجهه... أنفه المستطيل الملموم يمتد مستقيماً حتى انحناء شارب قطني يخالط بياض فضية لحيته فيبدو فمه الملموم الصغير محاطاً بشفتين ناعمتين زهريتين... عندما يتحدث كأن في صوته رنين دفء وعذوبة نغم وإيقاع فن... وله عينان جاحظتان

متعبتان غارقتان في عرفانية باطنية إسلامية لا قرار لمستقر تجليات أسرارها!!

هو خارج دائرة مِزَق ورُقع وخشونة هندام الدراويش... وهو إذ يمجد ويحبذ بساطة ما يلبسون إلا أنه لا يداني ما يلبسون ولا يضع لها مكاناً على جسده... وهو يرتدي جبّة من جوخ ناعم لونه وردي ويضع على كتفيه رداء من حرير لونه يقارب لون السماء... ويغتسل بماء الورد ويُضمخ جسده بعطر النرجس والآس والياسمين... وقد تاه في غرة كهولته في حب كاعب سمرقندية تُدعى (جوهر خاتون) كلف بها واصطفى نكاحها فتزوجها وعاشت معه وعاش معها في ثبات ونبات وأنجب منها الأولاد والبنات... وعندما هلّ عليه شمس الدين التبريزي واختلى به أربعون ليلة في دار موصودة الأبواب والنوافذ اختل شيئ عظيم عند (جوهر خاتون) وانقلب الصفاء عندها إلى كدر واشتد الحسد والقيل والقال وتنامت الغيرة والنميمة في صدرها وانتشرت همزات ولمزات السؤال عن الحال والأحوال بينها وبين بعلها جلال الدين الرومي وعلاقته بشمس ونأت (جوهر خاتون) بنفسها يلفها شادور بلون الليل وهي تطيل السجود على سجادة صلاتها... وتغلق عليها الدار وتدور على إيقاع نقر كفيها في الهواء وقدميها على الأرض إلى ان يُلقي بها الدوران على الأرض جثة خاوية الحركة!!

في الوقت الذي ينزف جلال الدين الرومي شعراً متيماً دنفاً في عشقه لشمس الدين التبريزي... وكانت (جوهر خاتون) تنز توتراً نفسياً واضطراباً وجدانياً حاداً يُضرم نيران قسوة الحرقة والألم عندها!!

وكلما ازداد لهيب عشق جلال الدين الرومي لشمس الدين التبريزي كلما نشب الوجع الروحي أظفاره في نفسية (جوهر خاتون) فتتردى روحها في وجع الحياة إلى أحط رتب معاناتها!!!

تـنـافل الروح!

تنافلت الروح في الروح تنافلاً متماهياً في الروح حتى الاختفاء: روح شمس الدين التبريزي في روح جلال الدين الرومي... ولم يبق شيئ لروح (جوهر خاتون) زوجة جلال الدين التي تدور متلصصة خارج الدار تنزع قرط أذنها ليصفى لها السمع وتلصقها على باب الدار... فيأتيها توهج فحيح الروح في الروح: تعض على شفتيها حتى يكاد يفيض عقيقها في غليان فيض غيرتها وتسأل نفسها أهو لها... أم هو له... ؟ أم الجسد لها والروح له؟! ولا تملك الشجاعة أن تـُفضي بما يعصف بها ويؤرق أحاسيسها ومشاعرها ويمزق روحها... وفي ابتهالات جلال في مناجاة الله شعراً في شمس وليس فيها...

«أي نور سرى في الخميلة من كر السكارى
وأي سرور وأي نشوة بالحب يا ربنا
من انعكاس وجه الحبيب في هذا الروض النضيد

بكل ناحية قمر، وشمس ونجم يتألق ربنا
بفضل شمس الحق التبريزي تَوَله القلب
وهامت الروح وحارت العينان في الحب يا ربنا».

وكانت (جوهر خاتون) تعض على شفتيها في حرقة حتى تكاد أن تغرز أسنانها فيها...

يا لعضيض شفتيها... وهي تتفقد نفح توجد العشق والغرام في الآلاف المؤلفة من القصائد لجلال الدين الرومي ينفحها نفح عاشق متيم في شمس الدين التبريزي دون أن ينفحها بقصيدة واحدة، بل ولا ببيت واحد من نثر قصائده!!

وتأخذني الدهشة، تقول عواطف، فأذهب أتفقد كل قصائد جلال الدين الرومي التي تتصبب عشقاً وولهاً في شمس الدين التبريزي ولا أجد ذرّة واحدة من قصائده في (جوهر خاتون) حتى في الشعر... المرأة ملعونة في أسلاف أسلافها عندك يا سيدي ومولاي جلال الدين الرومي، فأردد اللهم ارحم نساءنا من جنح رجالنا، وكأن هذا دعاء لله منذ قِدَم الله ولكن ليس من مجيب. وكانت (جوهر خاتون). تقول ذلك بينها وبين نفسها!!

وكأنها لم تكن عنده... وكأنه عند شمس الدين التبريزي وكأنه يلغيها بجرّة بيت شعر وهو يناجي شمس الدين التبريزي:

«أنت لي روح وعالم، فما نفعي بالروح
أنت لي كنز، فما نفعي بالكسب والخسران
رفيق أنا للخمرة تارةً، وتارةً أخرى رفيق للشواء
إن في هذه الدورة[1] تلفي فما نفعي بدورة الزمان».

وكأنهم يشربونها روحاً ولا يشربونها جسداً أو هكذا يبررون شربها لهم ويخفون فعلتهم عن الآخرين وقد قال من خبرها:

بأن الخمرة في صدقيتها تشفها الروح كما يشفها زجاج الدّن ولا يداهن ولا ينافق ويظهر على حقيقة شاربها... شيء من هذا أو ما يشابه هذا قالته (شافاق) في روايتها: «قواعد العشق الأربعون»... وأحسب أن سيدي ومولاي جلال الدين الرومي يتجلى صدقاً في أشعاره... وهو في عقر دار دن معاقرتها... وإلا لما قال شعراً ينزف عذوبة وشوقاً وعشقاً لا يجاريه عشق لشمس الدين التبريزي... والذي بقدر ما يفني روحه شعراً عذباً فيه: بقدر ما تفني (جوهر خاتون) حقدها وكرهها فيه!!

هم يتذوّقونها ويتلمظون ذائقة نكهة طعمها ويتفقدون شفيف صفاء لونها في الكأس ويفيضون شعراً فيها وبها، ولكنهم يؤولون طاريها في أشعارهم ويعزونها إلى واقع غير واقعها وما خلقت واستوت وعصرت من أجله ويستجلونها روحاً خارج روحها!!

---

(١) يعني دورة شرب الخمر...

إنهم يحطون من طهرها وأصالة عفتها ويزنون بها خارج عيون الناس إلا أن صدقية شعرهم النابع من قلب دنها ومن شواطئ روحها ومشاعر رقتها في رنين دنانها تفضحهم وتكشف حقيقة معاقرتهم لها روحاً ومادة وإن أخفوا ماديتها فإن روحها روح الخمرة تفضحهم وتتكشف عارية فيهم وفي أشعارهم!!

وكأن أبو نواس يخاطبهم قائلاً:

«اشرب فُديت علانية
أم التستر زانية
اشرب فديتك واسقني
حتى أنام مكانيه!!».

كأن قلبي على (جوهر خاتون) وشعر (جلال) يخدش أذنيها في مثلية نبض جماليته الشعرية في طعم حُمّياه وليس في طعم حُمياها وهو يقول:

«إن تألق جماله، فأين منه جمال الحسان
فوهجه شمس تضيء القناديل أبداً
فامض أيها القلب سريع الخطوات إلى اليمن
ابلغ العقيق النفيس مني سلاماً وإجلالاً».

إن للخمر وشربه أدوات ذائقته وأصولية بهاء ترتيب إدارة

كؤوسه فالروح عنده تخطو خطوات دل ودلال على إيقاع انتعاشها وجاذبية تغري روح الصدقية عندها في شاربها...

وهذه الأصولية التاريخية في أدب الشراب وثقافته لا يلم بها إلا عُقارها والمداومين في صلاتهم على سجادة دكتها... وفي مطارحتها هوى رحيق سُكرِها وبهجة نشوتها!!

وأحسب أنه لا يبلغ إلى عذوبة ورقّة وصفاء الروح في تجلي إيقاع النغم في الشعر إلا من وقع ثملاً في هواها؛ وأحسب أن الكثيرين من الشعراء العرفانيين الأولين يخفون معاقرتهم لها...

ويدّعون أنهم يعاقرونها روحاً وليس مادة... ومتى كان العقر والمعاقرة والعقار روحاً بلا مادة؟!

«قالت التفاحة لزهر الفل: ماذا دهاك؟

قلت: من خوف الجسد أنا لا أتجلى

هتفت ورقاء «كُو، كُو، أين الحبيب كَوْ»

فدلها على الورد بلبل عذب الندا».

إذا ضاعت الحقيقة شعراً منك فاشربها وتلمظ الحقيقة فيها فهي وحدها تأخذك بيدك لتدلك عليها... بل وتصبح أنت الحقيقة تدل الناس على حقيقتهم كاشفاً حقيقتك عارية أمامهم...

وكانت هناك حقيقة بينهما، بين (شمس) وبين (جلال) وقد تجوهرت شعراً في معاناة روحيهما ولم يفضِ أحد بالسر عندهما... سر معاشرة روحيهما في البحث عن الله...

المثنوي

بين حرف الألف (أ) وحرف الدال (د) يتشكل (المثنوي) المعنى... إذا عُوج الألف أصبح (د) واذا قُوّم اعوجاج الدال أصبح (أ) فالألف يدل على الاستقامة في الروح والدال يدل على الاعوجاج المادي، شيء من هذا في قاموس الثقافة العرفانية. وكانت تقول عواطف بينها وبين نفسها وفي مرآة نفسها... أهو معنى ما عناه سيدي ومولانا جلال الدين الرومي في سِفْرِ كتابه (المثنوي)...

لا أدري أحداً أرشد إلى ذلك أو تأول معنى ذلك - على حد معرفتي - من الذين سلطوا الأضواء على ترجمته ودراسته من العرب والمستشرقين ومن الذين تناولوا أعمال هذا الجهبذ العرفاني الباطني الصوفي مولانا جلال الدين الرومي المثير لجدل التأمل في اجتراح ملامسة الروح خارج التاريخ وفيما عناه بكلمة (مثنوي) في وضعه لها عنواناً لسفر كتابه «مثنوي»...

وكانت تحدث نفسها أمام المرآة عارية كما خلقها الله...

لعادة اتبعتها في اعتقاد: بأن عري الجسد من عري الروح وهي خصوصية حالة عقيدة لدى البعض... فالحقيقة لا تلمس إلا وهي عارية... أكانا يتعريان في خلوتهما بحثاً عن الحقيقة؟! سألت نفسها عواطف!!

وكانت تقول: إن في انحناء الألف إلى دال... واستقامته إلى ألف... فيه شيء من الحنين إلى الأصل... ضمن جينة البدء قبل الانقسام البيلوجي العظيم من البنية الأنثوية في التحول البيلوجي إلى البنية الذكورية في طبيعة النمو النوعي البيلوجي في الخلق والتخلق وهو ما نرى فيه ملمح التشابه في الذكر من الأنثى... وفي الأنثى من الذكر: شيء من ملامح الرجل في المرأة وشيء من ملامح المرأة في الرجل... وكان هذا الانقسام البيلوجي العظيم من البنية الأنثوية إلى البنية الذكورية قد خلّف بقايا شذراته الجينية في الذكر شيء منه وفي الأنثى شيء منه... الأمر الذي شكل بين بين الجينتين لاحقاً فيما يعرف بالمثلية الأنثوية والمثلية الذكورية!!

إن بين الأطراف المستوية نوعاً عبر التطور الجيني المادي والروحي، شيئا له خصوصية ووسطية: فيه أشياء من بقايا انقسام الطرفين وهو ما عرف علمياً (بالنيوترالية)...

أبين السلبي والإيجابي وسط فيه شيء سلبي وفيه شيء إيجابي؟!

إن كل سلبي فيه شيء من الإيجابي وكل إيجابي فيه شيء من السلبي... ولكن لماذا السلبي يعزونه إلى الأنثى ولماذا الإيجابي يعزونه إلى الذكر: إنه اللغو اللغوي الفكري والمعرفي بعينه... فقد يكون السلبي ذكراً وقد يكون الإيجابي أنثى، فكل سلبي فيه شذرات من الإيجابية وكل إيجابي فيه شذرات من السلبية... فالحياة في تنوعها وتعددها وتبادلها وتماسكها وتفككها وتشابكها وتقاربها وتباعدها وتشابهها وما تعكسه المادة تعكسه الروح في الحياة المادية والروحية... وذلك ضمن حركة التاريخ والجغرافيا... وعندما أتماثل نبض روحك سيدي ومولانا جلال الدين الرومي، تقول عواطف في وعي روح المطلق خارج وعي المادية التاريخية والجغرافية كأن شيئاً من الغثيان يشايئني ويمسك بي ولا أمسك به... فاذريه عني إلا أنه يتشبث في تلابيب روحي ويخرج ولا يخرج من مادية جسدي... وأدريه ولا أدريه... وليس كل شيء في الحياة ندريه لا في المادة ولا في الروح!!

أهو بوادر رّدة... ردّة العودة من الروح إلى المادة... أم ردة العودة من المادة إلى الروح؟!

إلا أن المادية تدري الروح... ولكن الروح لا تدريها... فإن دراها أحد تجاهها وأخذ بنفسه خارجاً عنها نزوعاً إلى عدم ما وراء

التاريخ حيث عرفانية اللاهوت تطويه طياً في عمق أقانيم الروحانية خارج أقانيم المادية!!

وطاف بالخاطر، تقول عواطف، شيء من القرآن الكريم «ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله» وهي تقول لنفسها لماذا تتضارب الأشكال عندي في تماتح بهجة شحن روحيهما: عندما نزلت روح شمس الدين التبريزي على روح مولانا جلال الدين الرومي كأن الروح تصدعت خشية عندهما... وهو ما يبتهج به شعراً لدى الحبيبين شمس وجلال!!

إن لكل روح سطوة التأثير في خصوصيتها... وكانت روح مولانا جلال الدين الرومي لا حول ولا قوة لها أمام سطوة روح شمس الدين التبريزي... فالحول والقوة لروح شمس على روح جلال... وكأن روح مولانا جلال الدين الرومي تسبح في فلك روح شمس الدين التبريزي القابض بروحه على روح جلال الدين الرومي...

أيمكن للروح أن تسحر الروح؟! في الأثر كان للسحر أثره بين امرأة ورجل أو بين امرأة وامرأة أو بين رجل ورجل... أوقع أحدهما في سحر الآخر؟! أللسحر منزلة في خصوصيتهما الروحية؟! وطافت بخاطرها الذكر «وما علمناه السحر وما ينبغي له».

إن سحراً حلالاً يستوطن شعرهما وحسبي أن كل قافية من قوافيهما تتماوج رقة وعذوبة سحرية!!

سحر الجسد... أم سحر الروح لا صبابة للسحر في الجسد... وإنما صبابة السحر في الروح... السحر ليس في ماديته السحرية في روحانيته يتفاعل سحراً!!

وعندما يهذو الجسد سألت عواطف نفسها سحراً... فإن ذلك هذو الروح وليس بهذو الجسد!! إذن ما السحر؟! السحر وعي اللاوعي في وعي الروح الذي يُغلّف الواقع المادي بالواقع الروحي في عملية إيحاء شحن المشاعر والعواطف الروحية... في واقع يُظهر الوهم واقعاً خلافاً لحقيقة واقعه... إنه ايحاء الوهم في الروح وإغراقها بوهم تجلياتها الروحية إلى أن يُصبح الوهم لديها حقيقة تكاد تنظرها العين وتسمعها الأذن ويجسدها اللمس... وهو يخطف واقع التصور إلى تصور مغلوط في الواقع الطبيعي في تصور الأشياء وتصويرها... إنه حالة نقل الوهم بقوة إيحاء الوهم في الآخر الموهوم فيما يحس ويرى ويلمس من أشياء موهومة خلاف حقيقتها...

وهناك ممارسات وتجارب سحرية لدى السحرة والمشعوذين ومفسري الأحلام وضرب الودع وقراءة فناجين القهوة وما إلى

ذلك توارثوا تجاربها ونقلوا أوهامها وألاعيبها لحاجتهم المادية والمعنوية في الرزق وكسب عيش الحياة...

وللسحر والسحرة روايات وحكايات ومعجزات وخزعبلات تتناقلها العامة أباً عن جد... وهي لا تمت إلى الحقيقة ولا يمكن أن تقبلها روح أو يصدقها عقل...

وتلعب روحانية الأديان طراً على وجه الأرض في تمكين وإدامة زيف ثقافتها بين الناس!!

غسق العشق الروحي

قونية نزيف مدينة عشق يتسامى شمساً جللاً بين شمس الدين التبريزي ومولانا جلال الدين الرومي... وهي مدينة تغط في غسق العشق بين المحبين والمحبات العاشقين والعاشقات والعاصين والعاصيات والتائهين والتائهات والتائبين والتائبات... وهي زاخرة بحركة واسعة من رجال فقه وعلم دين ومريدين نجباء يتنفسون روح القرآن في أريج وروده وعبق أزاهيره: أدباً وفقهاً وشعراً وعلم كلام وتفسير... وكان القرآن عندهم أدب معاناة وزهد عبادة في دار الدنيا... ونعيماً وحور عين في دار الآخرة!!

قونية بهجة أرض ملوّنة بالورود الفوّاحة التي تتراقص زهواً في جمال طبيعتها... وكانت النسائم العليلة الناعسة تداعب أغصان أشجارها الداكنة في خضرتها الضاربة الجذور حتى الأعماق في تراب وردي فوّاح بعطر الطبيعة وعطر النساء والرجال في غسق العشق في الحياة!!

قونية مدينة ناعسة المزايا... نُعاسها يتكسر عذوبة نعاس

فطري في عيون الكواعب من نسائها... وعندما تتطارف عيون مدينة قونية يتهامى المطر كالفضة من سمائها الملبّدة بغيوم رصاصية الألوان... وحيناً يطارف ضياء شروق شمسها ومض عيونها فتتوهج الطبيعة فيها دفئاً كدفء توهج العشق في نسائها ورجالها... وفي قونية ينتشر أريج العشق في كل مكان - مباركة لعشق شمس الدين التبريزي عشقاً روحياً في مولانا جلال الدين الرومي - وتتفتح زنابق الورود وتتراعش مُهج العصافير مذبوحة في قونية المدينة التي يسكن العشق تضاريس طبيعتها فتتنابت زنابق العشق حقولاً غناء على أرضها وكأن الحجر يرقّ للحجر ويتدانى عشق حجر في حجر... وكأن الشجر يرق للشجر ويتدانى عشق شجر في الشجر... وكأن الماء يتدفق عشق ماء في الماء...

وكأن السماء تُدلي لُعاب قطرات شهواتها الفضية رضاب قوس قزح في رحم الأرض... فتمور الأرض شغف عشق بالسماء وتمور السماء شغف عشق بالأرض وكأن بركة السماء تغسل ذنوب العاشقين على الأراضي القونية بوضوء ماء من أباريق رب السماء...

وفي غريزة لذّة الحياة... تتدانى مناقير العصافير وتتبادل عبرها رحيق رضابها قطرة... قطرة... من إفراز حواصلها... فتفيض ترانيم

أغاريدها رقّة وبهجة في رقة بهجة طبيعة قونية الحالمة بعذرية العشق في نسائها ورجالها...

«بهجة الطبيعة في قونية بهجة الله في صوفية علمائها».

من قال هذا... أحدهم قال ذلك... لا أذكر اسمه... ولكنه ليس شمس الدين التبريزي ولا جلال الدين الرومي... ربما يراها الرومي في التبريزي!!

وفي تناول نفسيهما هكذا تكتمل بهجة الله في خلوتهما!!

عندما تجاذبت الروحان في روح واحدة في أول لقاء بينهما... كان ذلك في قونية مدينة العشق والاستغراق... استغراق الروح في الروح حيناً وفي الجسد حيناً آخر...

وكان حدث جللاً في استغراق التجاذب الروحي فيهما كأن بهجة قيامة تخاطفت وعي روحيهما!!

يقول الدكتور ابراهيم الدسوقي شتا في شرح وتقديم «مثنوي» في ترجمة عن الأفلاكي:

«أنه في أول لقائهما صرخ شمس الدين في التو صرخة عظيمة وسقط مغشياً عليه... فنزل مولانا من فوق مطيته وأمر تلاميذه بحمله إلى مدرسته... ويقال إنه وضع رأسه على ركبته ليفيق من غشيته ثم أخذ بيده وسارا معاً ومكثا في خلوة مستمرة ذات صوت متصل تبلغ تسعين يوماً لم يخرجا منها ولم يجرؤ أحد على الدخول

عليهما ماذا دار في هذه الخلوة المتصلة... يقول الأفلاكي: عشرات الآلاف من الأسئلة والأجوبة والاختبارات العجيبة كان يطرحها مولانا شمس الدين ولم يكن مولانا قد سمع مثلاً من أي شيخ أو خطيب قط ما هي طبيعة هذه الأسئلة وهذه المناقشات والمكابدات التي دارت بينهما؟! لا يدري أحداً!! ويشبه (سلطان ولد) هذا اللقاء بلقاء موسى والخضر عليهما السلام ولا يزيد المهم أن هذا التعليق الزائد قد ألقى بأحجار عديدة في بركة قونية الهادئة وكان ثمة سيل من الأسئلة وعلامات التعجب والدهشة تزداد بين المشايخ والتلاميذ والمريدين على السواء وظلوا يتحدثون بأنواع من الترهات وبما لا ينبغي قوله».

وكانت ظنون تحوم في علاقة مثلية فقد طفح الشعر غليان عشق يتفجر بوحاً عارياً في بوح قوافيهما في ملامسة الروح والجسد على حد سواء... وكانا يتواريان شعراً في الروح خارج الجسد إلا أن التلاصق الشعري والوجداني يكشف سريرتهما الروحية والجسدية ومن خلال الجسد!!

بين الروح والجسد تفسيران: تفسير مثالي وتفسير مادي... فالتفسير المثالي: يجلهما وينزههما ويرتفع بهما إلى المقدس في الروح خارج مدنس الجسد!!

أما التفسير المادي فلا يرى لا دنساً في الروح ولا دنساً في

الجسد فما الحرج والإحراج إذا كانت الحقيقة الجينية تشدهما إلى حنين التجاذب حباً وعشقاً في عري الروح والجسد على حد سواء؟!

فالمثلية ليست ممارسة سلوك في خلق، تؤكد عواطف – عن خبرة – بقدر ما هي خلق ممارسة في سلوك... فالبنية في التخلق البنيوي وليس في مسلك تخلق إفرازاتها!!

وإن اندراج المثلية في طبعها وتطبعها المثلي وصفاتها تندرج على مختلف الرتب البشرية والخصال في وظائفها وأنشطتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية والعلمية والدينية والأخلاقية وما إلى ذلك من دقائق خصائص الناس وطباعهم... إلا أن مترجم وشارح ومقدم «المثنوي» الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا والناهلين من منابع الفلسفة المثالية والذين لا يخفون مناهضتهم للفلسفة المادية في إدانتها وتكفيرها والهجوم عليها!!

ويؤكد الدسوقي قائلاً: «وبالتأكيد إن الأمر لم يتطرق إلى الظن في الشذوذ الجنسي الذي طرحه بعض الباحثين الأوروبيين (!!) فأي شذوذ جنسي هذا الذي يقوم بين قطبين من أقطاب الفكر في خلوة صوم متصلة؟! علم هذا عند الذين يتخرصون بأمثال هذه الأحاديث الساقطة التي تناسب مستوى أفكارهم».

إلا أن عواطف تقول: إن جاذبية روحية في مادية الجسد والروح أحسبها تتجلى جاذبية فائقة الغليان حتى نهاية درجات غليانها إذ تتحول إلى بخار روحي يتماهى في لاوعيهما... فيصبحا حالة حمم عناق عشق متلامس الروح خارج جسد روحيهما: مثلية الروح بالروح... وليس مثلية الجسد بالجسد...

إن حرية البحث والتحقيق متاحة ومباحة لكل باحث ومحقق ومدقق وإن الحاكمية العقلانية في موضوعية ماديتها وليس في عرفانية تجلياتها المثالية والميتافيزيقية!!

وفي خلوتهما!!

وكان السؤال بينهما: أكان البدء روحاً... أم كان البدء مادة (جسداً)... أكان البدء طيناً... أم كان البدء ماءً... أكان البدء الله؟!

وفي خلوتهما بعد أن قضت الروح حاجتها من الروح... توقّفا في تبادل عشق الروح بالروح... عشق الجسد في الروح أم الروح في الجسد؟!

أروح شمس في روح جلال أم تتماهى روحاهما فيهما خارج جسديهما فيصبحان روحاً واحدةً مفقودة الجسدين!!

وكان السؤال يدور بينهما وكأن عواطف تسمعهما... الأولوية للروح أم للمادة؟! المادة قد تكون بروح أو بلا روح... أما الروح فلا تكون إلا بالمادة ولا روحَ بلا مادة: إذن الأولوية للروح... يقول شمس ويصمت جلال... يقول جلال إذا كانت مادة بلا روح ومادة بروح فالتحول في قوة الخلق تحول المادة التي بلا روح إلى روح... الروح لا يمكن أن تتحول واقعاً إلى مادة... أما المادة

فيمكن أن تتحول إلى الروح... إذن، المادة قوّة في مقياس التحول المادي إلى روح... والروح لا تمتلك مقياس التحول إلى مادة!!

يُغلقان الباب عليهما ويوصدان النوافذ كي لا يراهما أحد ولا يسمع نقاشهما أي كائن من كان من أحد... فهما يتنازلان أسرار روحيهما في جسديهما... وجسديهما في روحيهما...

في فتنة كسر عظم الروح في الجسد وكسر عظم الجسد في الروح في البحث عن الحقيقة...

وكان شمس يُمسك شيئاً من روح الله في جلال... وكان جلال يُمسك شيئاً من روح الله في شمس... وهما في تشابك الروح بسلاح الروح خارج سلاح المادة... يأخذ التشابك سلميته الروحية خارج ماديته القتالية!!

أكان البدء طيناً... أم كان البدء ماءً... الطين وُجد أولاً... أم الماء وجد أولاً؟! الطين من الماء... أم الماء من الطين؟! أفي الطين ماء أم في الماء طين؟! الطين استوى من الماء أم الماء استوى من الطين؟! يصر شمس حاجبيه ويقول: «وجعلنا من الماء كل شيء حي»... من الماء وحده... أم من الماء والطين يأتي العجين؟! أعجينة الخالق ماء وطين... أكذا عجينة الخلق ماء وطين؟! كل يُحدث نفسه خارج نفس الآخر... في الماء طين... وفي الطين ماء... أفي البدء كان ماء... أم كان طين؟!

معادلة الطين والماء كمعادلة التاريخ والجغرافيا... لا جغرافيا بلا تاريخ ولا تاريخ بدون جغرافيا... وفي الزمان والمكان... المكان طين والزمان ماء... الأولوية للزمان أم للمكان... للتاريخ... أم للجغرافيا؟! للماء أم للطين؟!

التاريخ في الجغرافيا... والجغرافيا في التاريخ... فلا تاريخ بدون جغرافيا ولا جغرافيا بدون تاريخ... لا زمان بلا مكان ولا مكان بلا زمان!!

استوى الزمان... واستوى المكان... أم استوى المكان واستوى الزمان... استوى التاريخ واستوت الجغرافيا... أم استوت الجغرافيا واستوى التاريخ... الأولوية لمن؟! وهو ما جعل خلوتها تطول في البحث عن البدء...

أهو الحي القيوم الواحد الجبار المتكبر بدؤه طين... أم بدؤه ماء... بدؤه روح... أم بدؤه مادة؟! الروح لا تستوي مادة ولكن المادة تستوي روحاً (القوة في التحول) كما قلت: يسأل جلال شمس الدين...

القوة حركة... والحركة تحول... والتحول قوة... يتمتم جلال:

«لا حول ولا قوة الا بالله» تمتمة تحمل جانبين: شركاً

إلا أن عواطف تقول: إن جاذبية روحية في مادية الجسد والروح أحسبها تتجلى جاذبية فائقة الغليان حتى نهاية درجات غليانها إذ تتحول إلى بخار روحي يتماهى في لاوعيهما... فيصبحا حالة حمم عناق عشق متلامس الروح خارج جسد روحيهما: مثلية الروح بالروح... وليس مثلية الجسد بالجسد...

إن حرية البحث والتحقيق متاحة ومباحة لكل باحث ومحقق ومدقق وإن الحاكمية العقلانية في موضوعية ماديتها وليس في عرفانية تجلياتها المثالية والميتافيزيقية!!

وله المطايا!

وكانت عواطف تسأل نفسها: أعلاقة حب أيضاً بين مطية شمس ومطية جلال وأحسب أنهما في تبادل عشق أيضاً، عندما تشخص ذاكرتي إلى المنخل اليشكري قائلاً: (و أحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري)... فناقة شمس الدين وناقة جلال تتدانيان ولهاً وتتلامسان رقةً فتلوي مطية شمس تارةً رقبتها على رقبة مطية جلال... وتلوي مطية جلال تارةً رقبتها على رقبة مطية شمس ويتبادلان نظرات الوله في حميم علاقة غريزتهما الحيوانية!! وأكاد أتخيّل، تقول عواطف: غريزة الوله عشقاً في نظرات عيون المطيتين: مطية شمس ومطية جلال... فالأساس الجيني في بدء الخلق وتعميم الانقسام البيلوجي في سائر المخلوقات البشرية وغير البشرية، فصفة المثلية نجدها في سائر مخلوقات الله دون استثناء... في الطيور والحيوانات والحشرات والرخويات وخلاف مخلوقات الله من سائر البشر وخلاف البشر!!

فالناقة تُعرف بصغر رأسها وجمالية انحناء رقبتها... وارتفاع إلمامة سنام ظهرها نزولاً حتى انحناء مؤخرة ظهرها عند امتداد ذيلها وفي ضمور بطن ملموم ناعم يمتد نزولاً إلى ما بين فخذيها... وفي نظراتها بريق ناعم ندي يُرطب عيونها المخضبة بسواد ساحر... ولها رغاء بحة شجية تتكسر دلالاً في رغائها... والناقة حرونة المزاج إلا أنها سريعة الرضا رقيقة العاطفة... خلاف البعير فهو جلف المزاج كبير الرأس جهم الهيئة فض الالتفاتة مفروش السنام نزر النظرات متهدل اللغاديد سمج المزاج متشنج الرغي تكاد الحشرجات تتفجر نشاز رغاء في حنجرته... وكان لشمس الدين التبريزي ناقة يقولون عنها إنها مسحورة فهي ملطاء لونها كلون الرصاص الداكن ولها رقبة مبرومة ورأس صغير وأذنان نافرتان وعيناها البنيتان المدورتان تشعان وميضاً قلقاً... بطنها ضامر وقوائمها عظيمة ناعمة وسنامها ثلاثي الشكل ولها رغاء ناعم يتقطع محزوناً في حنين رغائها كأنها تتوقع مكروها لراعيها شمس الدين التبريزي...

خلاف ناقة مولانا جلال الدين الرومي فهي ناقة لونها كلون الذهب وشعرها ناعم كالحرير ورقبتها مكنوزة ورأسها مملوء وعيناها مفعمتان بسواد ندي ناعس... لغاديدها ملمومة... عندما ترغي تحسبها بعيراً وهي ناقة... فحشرجات صوتها كالبعير وهي

ناقة... و:إن عناصر الذكورة طاغية على عناصر الأنوثة عندها... ففي أساس التكوين كل جينة تحمل شيئاً من الجينة الأخرى حتى الجينات الحيوانية ناهيك عن الجينات البشرية.

يا لشمس من شمس...

هو في حركة متقلبة لا يستقر... كأنه يبحث عن شيء غير مستقر... وكلما استقر برهة نهض ليستقر برهة في مكان آخر، كأنه ديمومة حركة متقلبة غير مستقرة... يريد أن يقبض على شيء...

ولا يقبض على شيء... كأنه يبحث عن شيء لا يدريه أو يتوهم أنه يدريه!!

وكأنه قُدّ من حركة ليس لقرارها قرار... وهو يطوف المكان المكان... والأرض الأرض ووجهه يتقلب في السماء (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها)...

أكأنه يبحث عن قبلة لا يرضاها أحد حتى هو نفسه لا يرضاها!!

وكان يمتطي ناقة جرداء تسابق الريح في سرعتها... كأن جنياً مجنحاً يُساكن تطيرها...

وهو كالطائر... ما حطّ على غصن من غصون المعرفة في الله إلا وطار ملهوفاً للبحث عنها على غصن آخر... فالمعارف

تزيد الباحث عطشاً كلما نال منها ازداد عطشاً إليها... والمعرفة عند شمس إنما هي وسيلة وليست غاية... وهي تفصح عن نفسها في العجز والقصور كلما نلت منها... نالت منك قصوراً ما بعده قصور...

وإذا كان للحقيقة وجود... فإن وجودها متاهة بحث عن وجود الموجود وخارج وجود الموجود فأين وجود الموجود؟! أفي الحقيقة أم خارج الحقيقة... أهناك حقيقة خارج الحقيقة؟!

وهو يعوّل على القلب ولا شيء عنده غير القلب في البحث لإدراك المعارف الربّانية... ويقول شمس عن نفسه... إني صعب الكلام ولو قلته مئة مرة لفُهم في كل مرة بمعنى آخر!!

وهو يخوض الفلسفة... ويقول هذا ليس خوضاً في الفلسفة هذه فلسفة خارج تاريخ الفلسفة... الفلسفة في التاريخ وماهو خارج عن التاريخ لا يُعد فلسفة ماذا يعد؟! ليس هناك جواب!! إلا أن الفلسفة في بطن التاريخ وخارج بطن التاريخ...

وهو لا يُداني الفلسفة ويناصبها العداء فهي تحول دون هدوء النفس في وجود الله... وكأن شمس الدين يحمل صُرّة من الأسرار يخشى عليها أن تحترق إذا اقتربت من الفلسفة... شأنه شأن مشايخ الصوفية الذين يتوارثون كراهيتهم للفلسفة جيلاً بعد جيل... لارتباط الفلسفة بالعقل؛ ويرون «أنه كل ما يعرفه العقل لا يكون

له وجود». ويتّهم شمس الدين بالحمق والجهل كل من يخلط بين الفلسفة والدين، ... ولم يقبل حشر الأجساد وهو يسخر من كل من عدّ الحشر روحانياً فقط... ولذلك يعلن سخطه على (عمر الخيام) الذي كان ممن قالوا «بأن الحشر روحاني فحسب»، كما ينقل لنا ذلك عن الفارسية الدكتور محمد السعيد جمال الدين من قصائد مختارة من ديوان شمس الدين التبريزي لجلال الدين الرومي، ويقول شمس في (مقالاته): «أورد الشيخ ابراهيم إشكالاً على مقولات الخيام عن كيفية كونه حائراً؟ قلت: أجل إنه إنما يتحدث واصفاً حاله قد كان حيراناً وممن ثم فإنه يتهم الخالق تارةً ويتهم الزمان تارةً... وتارةً ينفي وينكر وتارةً يُثبت فإن تحدث فإنما يأتي بأقوال هي ضرب من الوهم (...) وما المؤمن بحيران إنما المؤمن من أزاحت الحضرة (له) النقاب وكشف الستار فرأى مراده بعينه فيتعبّد عياناً في عيان ويدرك لذّته بعينه». ولأن شمس الدين في حيرة... يرى الآخرين في حيرة؛ أيدري الحائر عن حيرته... فكيف يدري عن حيرته وهو حيران؟!

تسأل (عواطف) نفسها: أعيش الحيرة ذاتها التي يعيشها شمس؟! حيرتي خلاف حيرة شمس تقول (عواطف لنفسها)!!

الموسيقى الطريق إلى معرفة الله!

أتدري سيدي ومولانا جلال الدين الرومي... تقول عواطف أمام المرآة... وكأنها تحدثه وجهاً لوجه...

أنت وحدك دون أحد غيرك غلغلت العشق فينا... عندما تسلقت إلى روحك في المرآة في غفلة من روحـك... رحت أستل بطرفي إبهامي وسبابتي من غابة روحك شتلة... شتلة وأدفع بها شتلة... شتلة في روحي... فتضيء شتلات روحك في روحي فأحتضنها وتحتضنني حتى أتماهى فيها روحاً وتتماهى فيّ روحاً... ونعيش لُحيظات لا ندريها من لحيظات جسدينا: لحيظات أنين (...) في أنين روحي وروحها... فأتصورها شمس الدين وتتصورني جلال الدين وأتصورها جلال الدين فتتصورني شمس الدين هكذا اختلط حابلي في حابلها... وحابلها في حابلي وأصبحنا حابل أنين واحد يتدفق لحناً عذباً في قصبة ناي من خلال قصبة نايها... فنغدو نفح قصبة ناي واحد أتسلق نفحاً في روح قصبتها وتتسلق نفحاً في روح قصبتي...

أهي الحياة لغة نفح ناي في تسلق الروح على إيقاع الموسيقى في معرفة الله... أمعرفة الموسيقى معرفة الله؟!

أتدري سيدي ومولاي جلال الدين الرومي أن نفسي تغلغلت في نفسك روحاً في محاكاة الله عزفاً بالموسيقى والشعر والرقص في تماهي الجسد في موسيقى الجسد للإمساك بالروح فألتمسها روحاً بروحي على أقل تقدير!!

فأقف إجلالاً لقولك: «إن الإيمان بالموسيقى والشعر والرقص كسبيل أكيد للوصول إلى الله فالموسيقى الروحية تساعد المريد على التركيز على الله بقوّة لدرجة أن المريد يغنى ثم يعود إلى الواقع بشكل مختلف».

حتى إن فكرة الرقص الدائري بالجسد تحولت إلى طقس ديني... الجسد يدور راقصاً للامساك بالروح... والروح في الجسد وهي تشد عزيمة الجسد في الدوران في البحث عن لذّة الروح... وأحسب أن لذّة الروح لذّة الجسد... ولا لذّة لروح بلا جسد ولا جسداً بلا روح فالموسيقى تحرك الروح في الجسد ويتحرك الجسد في لذة إيقاع الموسيقى... أللروح طعم؟!

ما طعم الروح؟... لا طعم للروح خارج طعم الجسد ،من الجسد إلى الروح وليس العكس من الروح إلى الجسد!!

وهو ما تسميه (السماع) سيدي ومولانا جلال الدين الرومي

في الإصغاء للموسيقى، حيث يدور الجسد حول نفسه صاغياً ناصتاً للموسيقى في رحلة تصاعد الروح للوصول إلى الكمال... وأحسب أن الروح تأخذ طريقها إلى المتاهة بلا جسد... لا لغة للروح بدون لغة الجسد ولا صلاة للروح ولا عبادة لها بدون صلاة الجسد وعبادته... الجسد يؤدي الصلاة روحاً... ولا يمكن للروح أن تؤدي الصلاة جسداً!!

أيمكن للروح أن تظهر بدون الجسد، في الجسد تظهر الروح وليس العكس...

أتغيب الروح؟! أين تغيب الروح؟ إذا غاب الجسد غابت الروح وليس العكس... أتغيب الروح كالشمس لتظهر مرة ثانية... أهي كالشمس؟!

أقصد شمس الكون وليس شمس الدين التبريزي!!

اختفاء شمس الدين المفاجئ!

وفجأة وبلا سابق علم ولا خبر اختفى شمس الدين... فأصاب هلع كسوف بليغ قلب مولانا جلال الدين الرومي... أين اختفى لا أحد يدري... من يدري؟! لا الريح ولا الطير تدري!!

في الاختفاء سر... وفي الظهور سر... هذا ما يعرف في فقه المتصوفة... دون أن يُعرف السر... وكانت الأسرار كلها في قبضة الريح عند الأئمة خلاف ما يدعون!! وكان مولانا جلال الدين الرومي يُصفّق بكلتا يديه ويرفعهما إلى السماء كأنه يريد أن يُمسك شيئاً فرّ منه... وكان يهذو شعراً كأن روحه فرّت منه وأصبح جسداً خاوياً بلا روح وقد ظنت (جوهر خاتون) أن نوبات من الجنون تنتابه... وهو يهذو شعراً ولا يلوي على شيء... وكأن الحديث لا يخرج عن ظنون البعض أن «الملعون» سحره وهرب... وكان انشطاراً بليغاً حدث في أسرة مولانا جلال الدين الرومي... (علاء) انحاز إلى أمه (جوهر خاتون) و(سلطان) انحاز إلى والده جلال الدين... وذهب سلطان يبحث عن خليل والده شمس الدين في

الشام. وقال علاء لأمه إن عاد فإني قاتله... واقترب منها وضمها إلى قلبه وهو يكفكف دموعها!!

وكان شمس الدين التبريزي بمثابة الفرحة والبهجة والمسرّة والطاعة والرحمة والبركة المنزلة من رب العالمين على قلب مولانا جلال الدين الرومي... إلا أنه لعنة شقاء وبؤس وألم منزّلة على قلب الزوجة المصونة (جوهر خاتون) وكان حضوره عندها لعنة (...) وقد أصبح غيابه لعنة... لعنة سيطرة مُطبقة في حضوره وغيابه... وقد أضحى غليان الوله يتطّير بمولانا جلال الدين الرومي الذي يكاد يفقد عقله في صبابة ذهول فتنة روحية مفقودة القرار... فهو أسير شمس ساطعة الروح في روحه... وهو في أقصى درجات هيام عبودية العشق على فراق الحبيب...

وكان شمس الدين التبريزي فاره الطول نحيف الجسد رشيق الهيئة بهي الطلعة فاتن الالتفاتة بشرة جسده لونها وردي وهي تمور بضياء رمادي ناعم وله رقبة طويلة ملمومة مُزنّزة برقية مُضمرة من جلد ثعبان أرقط، وكان الكثيرون يعتقدون أن التأثير السحري عنده يعود إلى تلك الرقية التي تطوق رقبة شمس الدين!!

وله عينان رماديتان تشعان ضياء ناعماً ينبجس من مقلتين مجوفتين عميقتين مدورتين تتلاصفان لوناً رمادياً ندياً وله أنف عظمي منحنٍ أشبه «بمفلقة» محار تميز قسمات وجهه وله أذنان

صغيرتان لاصقتان تلتقطان الهمس من بعيد... وشفتان مكنوزتان ذاتا لون بني غامق تندلعان عن صفة أسنان حادة ناعمة بيضاء كالثلج يقضم بها نوى التمر ويطحنه بسهولة دون عناء... أملط الخلقة لا نبت شعر لا في شاربه ولا صدره ولا لحيته، تفاصيل محياه حادة كأنها سكين شحذت تواً على جلمود صخر... هادئ الطبع خفيض الصوت رشيق الاهتزاز فاضح الخجل... ظاهره ساكن وباطنه متفجر... وهو كالبركان إذا انفجر فاض ركاماً وحريقاً على نفسه وعلى من حوله!!

في حلب في سوق النحاسين أمسك به سلطان ابن أبيه جلال الدين الرومي وانحنى يقبل يديه ولما انسل ليقبل قدميه رفعه بيديه وهو يضمه إلى صدره قائلاً: استغفر الله... استغفر الله... فهمس في أذنه قائلاً: بربك إن والدي يتقطع عشقاً وجنوناً وله من أجلك... أسألك بالله العودة...

بسط شمس الدين يده على كتف سلطان ابن أبيه جلال الدين الرومي... وقال سأعود سأعود... رغم أني أعود إلى حتفي!!

هلّت بشائر العودة: عودة الحبيب إلى الحبيب... وازدانت الدار بالأنوار واللذيذ من الشراب والطعام وصدحت المزامير في حلبات الرقص المولوي وتمايلت الرؤوس هزاً على إيقاع لحن الأناشيد الدينية واستقامت الأجساد تدور وتدور رقصاً حتى دارت

الرؤوس في حوائها بحثاً عن الله وفي بهجة عودة الحبيب إلى الحبيب!!

ولم يمض اسبوع على عودة شمس الدين التبريزي إلى قونية... إلا وشيء يحاك في ظلام ليل بهيم... وكانت المديات المشحوذة تلمع في أيدي ثلاثة طلاب من مريدي جلال الدين الرومي بينهم (علاء) ابن أمه (جوهر خاتون) انقضوا عليه ثلاثتهم ومزقوه شرّ ممزق... سحبه (علاء) من شعر رأسه الطويل... قطع الرقية من رقبته وفتحها بطرف السكين وكانت كتابات وآيات قرآنية ورموز سحرية (...)... ألقى بالجثة في البئر ورمى خلفها الرقية وهو يبصق ويلعن...

وفي الصباح انتشر خبر قيامة قيامتين في قيامة واحدة... وانقسمت مدينة (قونية) في هرج ومرج الحزن والألم والحسرة... وهرج ومرج البهجة والفرح والسرور...

وما كان من (سلطان) ابن أبيه جلال الدين الرومي... إلا أن ذهب إلى البئر وأخرج جثة شمس الدين التبريزي وهي تفوح بعطر الجنة كما توهم... وتم دفن الجثة بعد إخراجها من البئر في مقبرة من مقابر المسلمين!!

وقد غضب مولانا جلال الدين الرومي غضباً شديداً على ولده (علاء) وكان لا يكلمه ولا يلتفت إليه حتى أنه لم يشارك في

جنازته ولم يصل عليها... ولم يلبث مولانا جلال الدين الرومي طويلاً وقد مات كمداً على فراق الحبيب!!

أصاب مدينة قونية خوفٌ بليغ... حين بدأ أفول الحياة يأخذ بصحّة مولانا وكأن زلزالاً مسّ واقع الناس على الأرض فقد اشتد المرض على مولانا وكان بلسم المرض عودة العافية في عودة الحبيب وكيف يعود الحبيب والحبيب عصي العودة إلى الأبد: بلا روح وبلا جسد!! وكان يشعر بقرب الأجل... وعندما فتح شيئاً من بصبص عينه قال: «الارض جائعة وعما قليل سوف تظفر بلقمة دسمة وبعدها تسكن».

وعجز الطبيب (أكمل الدين) عن تشخيص الداء... وقال أحدهم شيء من كحل عين شمس الدين ورد آخر أكلت الأرض عين شمس الدين وذاب الكحل فيها... وفي غروب شفق دامٍ حان أجل مولانا جلال الدين الرومي وقد استقامت في جنازته كل الملل والطوائف والأديان في قونية فالحاخامات يصدحون بالتوراة والنصارى يقرأون الإنجيل وكان العشق يوحد أهل قونية، هذا العشق الإنساني المتسامي فوق جميع الأديان والمذاهب والملل؛ ووري الجثمان الطاهر عشقاً بالتراب مساءً وكان الشفق ينزف دمعاً قانياً كالعقيق... وسُدل الستار على حياة مولانا جلال الدين الرومي، حياة «عشق وفن وموسيقى ورأفة بالخلق وتمجيد

للإنسان... ومحاولة للنهوض به من سجن الطين والشهوات للتحليق في مقامات لا يسمو إليها إدراك الملائكة... ومن بعده مات قطه الأليف حزناً عليه بعد أن امتنع عن الطعام والشراب أسبوعاً بعد وفاته فكفنته (ملكة خاتون) إبنة مولانا ودفنته إلى جوار قبر والدها»، وعلى قبره في قونية نقش عزي له بالكامل عن الموت:

«في يوم وفاتي عندما يسيرون بنعشي
لا تظن أني متألم لفراق هذا العالم
فلا تبك من أجلي ولا تقل واأسفاه واأسفاه
فوقوعك في مخيض الشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشي لا تصرخ الفراق
فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي
وحين أودع القبر لا تقل الوداع الوداع
فالقبر هو حجاب على مجمع الجنان».

توقفت في نفسها (عواطف) أمام مرآة نفسها وهي تقول في حلمها لنفسها: رحم الله المحبين والمحبات العاشقين والعاشقات من الرجال والنساء على حدٍ سواء!!

عركت عينها عواطف براحة كفها وفتحتها على أشعة شمس تأتيها من شقوق النافذة فاستوت صاحية في وعي حلم استوى في لاوعي حلم يستقصي حقيقة طبقات وشائع ذاكرة حلم تعيه ولا

تعيه وتعيشه ولا تعيشه... تنظر إلى المرآة أمامها فتتساءل وعياً في نفسها: أكان الحلم انعكاس المرأة في مرآة نفسها... ؟!

استوت على مكتبها في خالص وعي حقيقتها وراحت تُدلي بدلو ما تعرفه عن سكون وتمسكن المتصوفة... هذا السكون الذي يعيش في ضجيج متناقضاته... فسألت نفسها؟! وقالت: إن كل انعزال له ظروف انعزاليته في شروط الأسباب والنتائج... وهو ما تشكل ضمن ضغوطات مادية وفكرية أرغمته على الانعزال للمحافظة على كينونته المادية والفكرية الانعزالية... وإلى درجة قد ينكفئ على نفسه ويُنمي خواص سلوكياته وطقوس عاداته وتقاليده الفكرية والمادية!!

إن واقع القمع والاضطهاد الاجتماعي والسياسي في المجتمع قد يدفع إلى الانعزال ويُنمي ظواهره الفكرية والمادية أكانت عرقية أم قومية أم دينية أم طائفية مذهبية ويدفع إلى تشرذم أبناء الشعب الواحد إلى فرق متباغضة متكارهة في عقائدها الفكرية والدينية!!

وأحسب أن الصوفية والتصوف ظاهرة لها امتداداتها التاريخية التراثية وبأشكال مختلفة على صعيد العالم في التأثير والتأثر في حياة الأمم والشعوب...

وإذا كانت ظروف العالم بشكل عام، تمر في ظروف لها طابع متشابه في الانتاج ونمو قوى الإنتاج فإن الأفكار والأديان وفرقها

الدينية وخلافها لها ارتباطات بشكل أو بآخر في التأثير والتأثر وفي الشبه والتشابه...

إنها كلها إرهاصات فكرية في تشكل فرقها الدينية و لها خصائص ظروف نشأتها المادية والفكرية...

وإن المجتمعات بشكل عام لها تعدد فرقها الدينية والفكرية والاجتماعية وتنوعها انعكاساً لحركة التاريخ والجغرافيا وما تحتويه من أفكار ونزعات وتأويلات متباينة ارتباطاً بتضارب المصالح في المجتمعات بين الناس من الضعفاء والأقوياء... والفقراء والأغنياء...

وإذا كان للأفكار الصوفية ظاهرتها على صعيد العالم وإن اختلفت وتعددت مناهجها وظروف أنشطتها وأساليبها، فإن في القرن الثاني للهجرة بدأت مؤشرات الأفكار الصوفية تأخذ مناحيها الانعزالية الصوفية في الفكر الإسلامي جراء إرهاصات الفرق الدينية الأخرى وتناميها في الحياة الإسلامية... وليس بالتحديد كما يرى البعض بأن الصوفية هي ردة فعل بطش النظام الأموي... وأحسب أن الصوفية في تجلياتها المادية والروحية تصب في خدمة النظام الاجتماعي في صدِّ الناس عن وعيهم المادي والفكري والأخذ بهم إلى غيب الماورائية والخنوع في عالم من الأوهام والحرمان والزهد والتقشف والدروشة في اتكالية سلبية مطلقة

بالتسليم لواقع أمر الظلم الإجتماعي وعبوديته وقمعه ضمن مبدئية صوفية خانعة «اللهم دبرني فإني لا أُحسن التدبير»...

وعلى إيقاع وهم لذّة التجلي بالروح صعوداً روحياً لمعانقة روح الله والفناء في المطلق!!

أن تكون سلبياً أمام القمع والإرهاب الإجتماعي وتدعو إلى السلبية والانحناء أمام ظلم الحاكم فهذا يعني: أن تدع الظلم يسود المجتمع والحاكم المستبد يصول ويجول خوضاً في دماء عباد الله!!

هل رأيت حركة صوفية في مختلف فرقهم تشكل فريق نضال وصدام ضد حاكم طاغ؟! والقرآن يأمر بعدم الركون إلى الظلم (ولا تركن إلى الذين ظلموا)... إنهم يجعلون من الإنسان درويشاً مغيباً يدور على نفسه وفي نفسه في رقصة مولوية يتفقد ذاته في ذات أوهامٍ ما أنزل الله بها من سلطان!!

إن الخلافات متنامية أكان بين المتصوفة أنفسهم أم مع أئمة علماء الفقه الإسلامي والشريعة المحمدية...

وإذا كان مريدو الصوفية من الدراويش الذين يعيشون في بؤس حياتهم وشقائها... فإن أئمتهم يحظون بعناية الحكام الظلمة في غدق الأموال عليهم ويباركون لهم دفع جيوش الدراويش خارج الصراع الطبقي والتعلق بأهداب تغييب الوعي على إيقاع

طبول الدوران في البحث عن حقيقة الله خارج إيقاع التاريخ... وفي استنباط مصطلحات خارج وعي العقل والمنطق والقانون وضد الحريات وحقوق الإنسان والحراك السياسي والاجتماعي وتشكيل الأحزاب وما يؤدي إلى تحرير المرأة والبشرية من عبودية الدولار والاستعمار والرجعية، إلى كلمات وجمل خارجة عن معاني الحقائق المادية والاجتماعية مثل:

استلهام الروح والانجذاب بالروح إلى روح الله... وأن القلب هو مدار الحقيقة وليس العقل... فالعقل رجس في استخراج الحقيقة الغائبة ومطاردتها والقلب وحده الذي يصل بك إلى الحقيقة... حقيقة الله، وفي الاستغراق والإنجذاب سمواً إلى ملكوت السماء والتشطح في عرفانية الدين والذوبان ذوباً عرفانياً في الفناء وما إلى ذلك من ترهات تغييب وعي الإنسان في لا شيء وإلى لا شيء... وفي الارتكاس إلى الباطن المجهول: في الإشارة إلى أن علمهم الديني علم باطني وليس ظاهرياً، فالله لا يُعرف إلا في عرفانية الباطن... علم يتجلى في الظلام والغموض وأوهام الدلالات الميتافيزيقية وفي العمل عرفانياً على تطهير ذات الإنسان من الأدران والأمراض والأوبئة وفي الارتفاع بها إلى دائرة الخلود في عرفانيتها الإنسانية...

إن العلم الصوفي هو علم داخلي أساسه القلب والرفض

المطلق للعقل... الأمر الذي يجعل من علم المتصوفة كونه باطنياً يتناقض أساساً مع علم الكلام والأصول والفلسفة ويرون أنه لا النقل ولا العقل يمكن إدراك الحقيقة... وإنما الحقيقة تُدرك بالقلب وتتشاكل المتصوفة في مسألة الوحي الذي تتلقاه البشرية من عند الله من فوق إلى الأسفل إليهم... خلافاً للمتصوفة الذين يصعدون إلى الله بذواتهم الروحية من الأسفل إلى الأعلى!!

من الفكر إلى اللافكر... أم من اللافكر إلى الفكر؟!

أنا أفكر على الأرض لأعي الله في السماء... من الأرض إلى السماء وليس من السماء إلى الأرض!!! والمشكلة لدى المتصوفة أنهم يفكرون بقلوبهم وليس بعقولهم... أي أنهم خارج الفكر والعقل (!!!) أيمكن ادراك الحقيقة بالقلب خارج العقل والفكر؟!

يتفقدون آيات الله بقلوبهم على الأرض ويصعدون بأرواحهم إليه يحتضنونه ويحتضنهم لإدراك الحقيقة: إنها فلسفة اللاوعي العرفانية عندهم خارج تلقي آيات الله وتعاليمه وحياً يوحى منه عبر الرسل والأنبياء...

أعيه وهو يحدثني عن نفسه في آياته المنزلات من عنده ليكتمل إيماني به... كيف يكتمل إيمان المؤمن إذا لم يتلق أنباء من عند خالق السماوات والأرض في الوحي عبر الرسل؟!

من الإيمان به أستوي فيه... أما خارج الإيمان كيف أستوي فيه... أستوي فيه أم يستوي فيّ... من يستوي في الآخر... ؟!

الإيمان لا يكتمل إلا في حضرته... أيمكن لبشر أن يحضى بحضرته... ؟!

بلى كما يتوهم المتصوفة صعوداً واهماً في تجليات أوهام دوران على عزف الدف والناي صعوداً عرفانياً روحياً وفي تجليات روحانية إلى هامش حضرته... «من ذاق عرف»... كيف أذوقه دون أن أراه وألمسه مادياً وأتلمظ طعمه... أ للروح ذائقة؟! أ للروح معرفة؟! خارج مادية الجسد في العقل والفكر واللمس والسمع والذوق والبصر... كيف تستقيم مقولتهم الخالدة في تعاليمهم: «من ذاق عرف»...

أتستطيعون أن تذوقوه وتعرفوه في بواطن وأسرار تجليات روحية وجدانية خارج هذا العالم المادي الذي يحتويكم وتتشكلون فيه أنّى سارت ركائب المعتقدات العرفانية عندكم...

يقول طيب الذكر وشهيد العقل والفكر الدكتور حامد أبو زيد في كتابه (مفهوم النص):

«فيضيف إلى تلك التناقضات المتكاثرة والمتنوعة تناقضاً آخر ألا وهو التناقض مع الوحي وظيفة ورسالة واتجاهاً فالوحي من الأعلى من الله إلى الإنسان للكشف والإفصاح عن ماهية رسالة

ما... بينما التصوف ينطلق من مفهوم مؤداه من الأدنى إلى الأعلى من الإنسان إلى الله سعياً لذاته النورانية والوحي بوصفه رسالة ومعنى ودلالة لتخليص الإنسان من انتكاساته الزمكانية النفسية والاجتماعية والمادية من خلال النهوض الجمعي ببناء واقع مبني على العدل والسلام والفضيلة بينما التصوف يسعى بنظرياته إلى الخلاص الفردي و... الخ... فيقول إن حركة الوحي النازلة من الله إلى الإنسان والتي تعني الكشف والإفصاح والبيان قد تحولت في الفكر الديني المتأخر إلى حركة صعود من جانب الإنسان سعياً إلى الله ذاته وعلى حين كانت حركة الوحي في بداياتها تستهدف الإنسان بما هو عضو في جماعة ومن ثم تستهدف إعادة بناء الواقع لتحقيق مصلحة الإنسان ولإشباع حاجاته المادية والروحية فقد كانت الحركة الإنسانية في التصورات الصوفية حركة للخلاص الذاتي الفكري بمعانقة المطلق والفناء فيه»

والصوفية في حركة اللامادية للوعي وإنما في وعي الروح... ولا يمكن - علمياً - وعي الروح خارج مادية الوعي...

إن المطلق خارج المنال في مطلقه، وكلما أمسكت به تحول في حالة مطلقة إلى مطلق... فكيف معانقته والفناء فيه... إلا في حالة جنون استجلاء الشيء خارج الشيء عبر حالة الارتقاء بالنفس عبثاً خارج وعي النفس في مطلق فنائها ما يعني هذو وعي اللاوعي

في تدليس نفس الآخر في الآخر والتحليق به في المطلق خارج الوعي!!

وهو ما يتعارض مع سعي الإنسان إلى بناء مجتمعه وتحقيق مصالحه المادية والروحية: في إخضاع مصالحه الروحية لمصالحه المادية وليس العكس، فإذا تحققت حاجة الإنسان المادية تحققت بالضرورة حاجته الروحية!! إن الروح عند المتصوفة كل شيء والمادة لا شيء، بل هي لعنة أبدية تلاحق الروح وتصد أبدية نزول فنائها في عرفانية المطلق والفناء فيه!!

ويرى الدكتور حسين حنفي في كتابه (التراث والتجديد):

«إن لا صوفية ولا تصوف في زمن الرسول ولا حتى في زمن الخلفاء بل هناك إرهاصات تشكلها في العهد الأموي... وكانت تشكلت هذه الجماعة الإنعزالية بسلوكها الفاضل وحياتها الروحية الصافية وتكاثرت كمظهر من مظاهر العجز عن مقاومة نظم الحكم القائمة على الاغتصاب والبطش مثل الحكم الأموي فظهر التصوف كظاهرة انعزالية في نشأته وتطوره كردة فعل على تكالب الناس على الحياة بعد اشتداد وطأة المعارك الحزبية والتناطح بين الفرق وبعد فشل كل محاولات تغيير الأمر الواقع بالقوة واستشهاد الأئمة من آل البيت...

ولا يقال نشأته ترجع إلى حياة الرسول فقد كانت حياة الإنسان الكامل كما كانت حياة الجيل الأول حياة الجماعة الكاملة».

وهو رأي قد يأخذ دقته - كما أرى - إذا تجاوز حيثياته في الظلم القائمة على الاغتصاب والبطش... وإنما ارتباطه بمجمل أسبابه المادية والفكرية والمثالية الفلسفية في حراك فكري له طابعه الخاص ارتباطاً بطبيعة حركة المجتمع وتجلياته الفكرية والمادية... وكانت هناك حالات انعزالية لأشخاص وجماعات تجافلوا أمام دعوة محمد فكان لهم طابع انعزالي لسنا في صدد المجال للتطرق إليه!!

وفي «المثنوي» وبأجزائه الستة أضع نفسي فيه فأنثني في شعره وينثني فيّ جلال شعر يرفعني إلى الله...

«بينما تمسك النفس زهراً وقرآناً
وفي الأكمام تخفي خنجراً وسكيناً».

وعلى إيقاع «أسلم تسلم» (السيف والقرآن) وبين الكفر والإيمان مصير الإنسان...

وفي (حديقة الحقيقة) يقول السنائي مبتهلاً بالقدر:

«لو كان رزقك في أقصى الصين مكتوب
فجواد بلوغه معدٌ ومسرج
يأخذك إلى هناك حيث طعامك
وإذا غفلت فإنه إليك يؤوب».

والصوفيون يرون: أن كل شيء دنيوي مدنس... وليس هناك أي شيء طاهراً في الدنيا (!!!) وهم يرفضون العمل ولا يعتقدون بالأمل ويفضلون عليه التوكل (!!!).

الموت بعينه في الدنيا والحياة في الآخرة...

ويرى المتصوفة أن الله فقير يحب الفقراء... فيسأل أحد الخبثاء... فكيف يكون فقيراً ولديه ملك السموات والأرض!!

وتأخذني الذاكرة إلى قصيدة مازلت أحفظها منذ الطفولة.

«رغيف خبز يابس تأكله في زاوية

وكوز ماء بارد تشربه من ساقية

وغرفة ضيّقة نفسك فيها خالية

خيرٌ من الساحات في فيء القصور العالية

تعقبها عقوبة تصلي بنار حامية»

أليس الشعر أكذوبة... إن أكذوبه وأكذبه عند شعراء المتصوفة بالرغم من جمالية تجلي قوافيهم الشعرية...

وأسأل: الفقر الروحي خلاف الفقر المادي... أفضيلة الأول على الثاني أم أفضيلية الثاني على الأول عند أئمتهم... وأحسب أن دراويشهم يعيشون على فتات موائد الأغنياء بما فيها فتات موائد أوليائهم وأئمتهم...

ويرى جلال الدين الرومي: أن الفقر كأعظم شيخ مريدوه القلوب... قلوب المحبين تلتف حوله وتجوب والفقر إذا تم هو الله...

إنهم يدعون إلى الصبر على الفقر والجهل والمرض- خدمة

للسلاطين والطغاة ويعللون ذلك بقوله تعالى (و الله مع الصابرين) فالصبر هو الثبات في مواجهة القدر وقبوله والابتسام له والترحيب به... وهو ما نسمعه يتردد على لسان المسلمين (الصبر مفتاح الفرج) وعلى لسان شعراء المتصوفة في فراق الحبيب...

إن معادلة الفقير الصابر... والغني الشاكر... فالغني يشكر الله على صبر الفقير على فقره... ويشكر الله على إبعاد الفقر عنه...

وسأل فقير صوفي (الله) قائلاً: «هل أنت راض يا الله برضائي عنك؟! فأتاه الجواب: يا كذاب لو كنت راضياً عني ما سألت عن رضاي عنك»

وعليه يتقبل (قدره) في إرادة الله أكان سخطاً عليه أم رضاء منه تعالى...

ويقول جلال الدين الرومي:

«ولو قلت لي مُتْ مِتُّ سمعاً وطاعة
وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً».

وفقاً لحديث نبوي: «موتوا قبل أن تموتوا». ومن إيمان لدى المتصوفة أن العدم ضروري للصيرورة والوجود...

وفي وصل الحبيب يقول جلال الدين الرومي:

«التوحد لا يصل إليه المحب
ما لم يختاره له الحبيب».

ويرى أن الطبل والناي والربابة أدوات موسيقية يباركها الله وتباركها جماهير الدراويش على إيقاع عزفها:

«دوّي يا طبل نغّم يا ناي الله هو
فورة في الرقص خمرة الصبح الله هو
روح من نور في دورة الكواكب شمس
رفعها الرب في الوسط هو!
من يعرف الرب في الوسط الله هو
من يعرف قوّة الرقص يحيا في الله
لأنه يعرف كيف أن الحب يقتل الله هو».

إن كل المتصوفة حسب علمي يعيشون دوغمائية روحانية لا يفرطون بها تجاه أي دين أو مذهب خلاف إبن عربي الذي تجلى بالصوفية في ماديتها الروحية وليس الروحية فقط وهو يحدثنا عن قلبه الذي يعزوه إلى عقله:

«لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىّ توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني»

التـصوف ضـد المـرأة

إن ثقافة تكريس العداء ضد المرأة ثقافة تشكلت في عمق الأديان منذ فجر التاريخ و أتت المذهبية الصوفية لتكرس عداءها لها؛ ومن الزهد الصوفي بالمرأة أننا نرى الكثيرين منهم يفضلون حياة العزوبية... فالمرأة عندهم لهو الحياة في إدارة الظهر للآخرة... حتى أن البعض منهم لا يمس طعاماً صنعته امرأة وهو ما يأتي على أثر ذلك في كتاب (نفحات الأنس)...

ويقارن جلال الدين الرومي في «المثنوي» المرأة بالدنيا «كعجوز قبيحة تزين وجهها الدميم الذي لا أسنان فيه وتضع على تجاعيده قصاصات مزخرفة بكلمات من القرآن لتبدو جملية فتفتن الرجال». وفي (مصيبت نامة) تنقل لنا آنا ماري شيمل أن المرأة عند المتصوفة هي «مثل عجوز شمطاء شنيعة ومنتنة تقتل كل يوم آلاف الأزواج»؛ وهي عاهرة شبوق خائنة دنيئة وهي أم تلتهم أطفالها... وتلك الأفكار صدرت أول ما صدرت عن الحسن البصري كما كان مؤلفو الكتب المتأخرون مثل الغزالي والعطار وهو ما تأتي عليه آنا

ماري شيمل في كتابها القيم (الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف).

وإن من واجبات الزاهد الصوفي كما يرى جلال الدين الرومي «إن النفس - أي النفس الدنيئة التي تعتبر تجسيداً خاصاً للدنيا ومفاتنها- يمكن تشبيهها أحياناً بامرأة تحاول بحيلها ومكائدها أن تكبل الروح الصادقة وتجرها إلى فخ الحياة الدنيوية». ويؤكد جلال الدين الرومي في (المثنوي - كدت أقول قبحه الله - «سقوطي أوله امرأة وآخره إمرأة»).

خلاف ابن عربي هذا الصوفي الفذ الذي أدرك الصفات الإلهية من خلال جمال النساء... وأحسب أن نفوس المتصوفة عديمة الجمال وهو ما ينطبق عليه قول الشاعر:

والذي نفسه بدون جمال

لا يرى في الوجود شيئاً جميلا.

وهم يتناقضون شمالاً ويميناً مع النبي محمد في حديثه بأن أحب إلى قلبه: «الطيب والنساء وهنّ قرّة عينه في الصلاة».

والمرأة أهم عنصر من عناصر الله في خلقه ألم يجعل الجنة تحت أقدام الأمهات...

وخلاف المتصوفة يرى ابن عربي «إن الله لا يمكن أن يرى منفصلاً عن المادة كما أن تمام مشاهداته يكون في المادة البشرية

أكمل من مشاهداته في أي شيء آخر... وهو أكمل في المرأة منه في الرجل» وأحسب أن المتصوفة يعيشون متناقضات عميقة لا حصر لها في نفوسهم وبينهم وبين الآخرين غيرهم؛ إنهم كرة من تناقضات تتدافع في عمق التاريخ إلا أن متحول الحياة عقلاً وفكراً ومادةً يؤكد تفاهات هذو أرواحهم من لا شيء في لا شيء!!

جذور التصوف

وأحسب أن التصوف له تجلياته الروحية في كل الأديان دون استثناء. ولا يمكن ربطه بعهد الأمويين كما يرى حسن حنفي في كتابه (التراث والتجديد) وقد عرف الإسلام في عهد النبي محمد جماعات يتشكلون في زهد من التطرف وينتفون بأنفسهم في تقشف شديد الزهد في الحياة... وكان البعض من المستشرقين يرى إن أصل التصوف الإسلامي وضعه محمد نفسه، وهو ما يتعرض له عالم الدين البروتستانتي الألماني ف.أ.د طولوك كما تشير إلى ذلك (آنا ماري شميل) في كتابها (الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف) وفي «المثنوي» يُنوه جلال الدين الرومي عن عدم المقدرة لأحد القيام بوصف المتصوفة جراء جلل الروحانية الربانية التي يتجللون بها... قائلاً: «وإن مثل من أراد أن يصف المتصوفة كمثل العمي الذين تحسسوا فيلاً فوصفوه حسبما وقعت عليه أيديهم من أجزاء جسمه فأتى وصفهم مرة أنه عرش ومرة أنه مروحة والأخرى أنه نرجيلة ولم يستطع احد منهم أن يتصور ذلك

الحيوان على كامل هيئته». وتقول (آنا ماري شميل) في كتابها (الابعاد الصوفية): «إن جلال الدين الرومي اقتبس القصة من سلفه (السنائي) وتقول إن مصطلح الصوفية (sufismus) أو التصوف (sufik) هو اللفظ المستخدم للروحانيات (mystik) في الإسلام والمعرفة المراد كلمة mystik علينا أن ننظر أولاً إلى مضمونها فمن نظر في الجذور اللغوية لكلمتي mystisch وmysterium استنتج دلالتها على شيء مفعم بالأسرار لا يمكن بلوغه بالوسائل العادية أو بالمجهود العقلي فهاتان الكلمتان مشتقتان من الكلمة اليونانية myein بمعنى إغلاق العين»... أن يصف أحدٌ نفسه بإشارات إعجاز روحانية ربانية ويتلفّع بخواص الانجذاب بروحه إلى روح الله والذوبان حتى الفناء فيه، فإن ليس كل ما يقوله الإنسان عن نفسه بالأخص الصوفي تجده واقعاً حقيقة في نفسه... وأن الإسراف في الادعاء بالشيء والتباهي به قد لا يأخذ حقيقتة هذا الشيء...

أيمكن للمتصوفة أن تُمسك بالحقيقة المطلقة دون غيرها من الأديان وبواسطة ما يدعونه من اختراقات كونية وحدهم دون غيرهم؟! وبمدارك بصيرة القلب لا بصيرة العقل!!

أقلوبهم تبصر وتعي وتفكر خلاف قلوب البشر؟! أليست قلوبهم كقلوب البشر صممت لضخ الدم في الجسم أم أن قلوبهم تضخ الأفكار ولا تضخ الدماء؟!

للحب خواص مختلفة؟! حب الإنسان وحب الإله أم أن الحب في لوعته وحميمية عشقه يمكن توظيفه إنسانياً وإلهياً؟! أم أن الحب الإنساني مادي... والحب الإلهي روحي... ألوعة الأول وعشقه تختلف عن لوعة الثاني وعشقه... أللروح لوعة حب وعشق خارج لوعة حب الجسد وعشقه؟!

لا عشق ولا لوعة حب إلا بارتباط الروح بالجسد والجسد بالروح فإن افترقا فلا عشق ولا وله ولا حب!!

وما خلاف ذلك إلا تجليات وجدانية وشطح عرفاني يتطير بوهم الاتصال بالحضرة الإلهية في استبطان الذات... إذ تذوب النفس الإنسانية فيه ذوباً متلاشياً من شيء... إلى لا شيء...

وفي (كشف المحجوب) للهجويري يقول: «هناك فرق بين من احترق من جلاله في نار حبه... وبين من استنار بجماله في نعيم المشاهدة... بين من يتفكر في الأفعال وبين من يتحيّر في الجلال فواحد من هذين يكون رديف الخلة والآخرة قرين المحبة»... ويقول: «إن من صافاه الحب فهو صاف ومن صافاه الحبيب فهو صوفي».

ويتماهى الحبيب بالخالق في الحبيب الإنسان حتى أن هذا التماهي يتشاكل في الواقع المادي ناهيك عن الواقع الروحي: فإن ابن الفارض يتجلى شعراً عذب الطعم والرائحه والنشوة:

«شربنا على ذكر الحبيب مُدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم».

فالصوفي يتجلى المستحيل المطلق ليحيله في تجلياته العبادية إلى عدم...

ألا يستحيل جلال الدين الرومي في علاقته العبادية... بين خليل الروح الله وخليله المادي شمس الدين التبريزي...

وما يراه... ويراه... : (سعادة تجدها في القلب عندما يأتيك الحزن).

وأحسب أن المتصوفة هم ألد الأعداء للثقافة فهم يكرهون الكتاب ويدعون إلى التخلص منه وحرقه... ويكرر بعضهم قول النبي: «اللهم إني أعوذ بك من علم (كتاب) لا ينفع». ويقول (العطار): «لا تتعلم من العلم إلا ما أفاد في واقع الحياة... وعلم الدين هو فقه التفسير والحديث فمن يقرأ غير ذلك فهو بغيض». ذات المصدر (الأبعاد الصوفية) آنا ماري شميل... وهناك متصوفة رأوا في منامهم أن يلقوا بكل كتبهم الثمينة في البحر...

وكما يرون إن معرفة الله لا يمكن التوصل إليها عبر الكتب... وإنما عبر الانشطاح واختراق الـروح بالروح للوصول إلى الله(!!!)...

إن تكريس اللاوعي في وعي الإنسان واقع يتجلى في خدمة

الحكام الظلمة الذين يطيب لهم تكريس الخرافة في وعي الإنسان وتدجين روحه بالعبودية ووعيه بالخرافة وواقعه في تجليات روحية ما أنزل الله بها من سلطان!!

صحيح أن تعاليم الصوفية تقوم على تعاليم القرآن... إلا أن الكثيرين منهم من يجد في آية واحدة من القرآن سبعة آلاف تفسير متباين...لا سيما وهم يعيشون روحانياتهم الوجدانية التي تؤدي إلى الغياب عن الحضور...

والانعزال بأرواحهم ونفوسهم في أوهـام خارجة عن التاريخ... ويرى المتصوفة أنهم أقرب إلى الله من حبل الوريد وأينما تولوا «فثم وجه الله»...

ويرى المتصوفة «أن محمد هو على رأس رجال الصوفية وقد أصبح عروجه إلى الحضرة الإلهية المسطور نصاً في سورة الإسراء وتأويلاً - في نظر الصوفية - في سورة النجم مثالاً يحتذى في صعود الصوفي بروحه إلى جانب الذات الإلهية».

وتقول آنا ماري شيمل في كتابها (الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف): «وتستمد الصوفية تعريفاتها للدرجات المختلفة والمقامات في الطريقة الصوفية من أحاديث النبي أو على الأقل من أحاديث نُسبت إليه وكل تيار إسلامي - وبالتالي كل تيار دخل الحركة الصوفية - استطاع أن يجد لنفسه أحاديث نبوية ما يستند

إليها وفي القرون الأخيرة استعمل الصوفية عدداً من الأحاديث التي لا وجود لها في كتب الحديث الرسمية المتعددة التي دونت في النصف الثاني من القرن التاسع وفي وقت قياسي أصبحت شخصية محمد لها أهمية فائقة في طبع الحياة الروحية لأمته: فهو قد كان القائد المثالي و«الأسوة الحسنة» وكان اتّباعه لزاماً على كل مسلم وسرعان ما أصبح تعظيمه في نظر أمته قمّة التصوف... حتى أصبح مثالاً للإنسان الكامل بلا منازع وهو سبب خلق الخليقة وهدفها وهو خليل الله وشفيع الأمة عنده».

دون أن يعير المتصوفة إلى قوله: «وما أنا إلا بشر مثلكم».

وكان نداء التوكل والتسيير والتخنيع ونبذ الدنيا والتعلق بأهداف الآخرة والاستسلام للمجهول يرتفع بينهم: شعراً وبياناً... «يا ابن آدم ستموت وحيداً وتحاسب وحيداً... فلماذا هذا التكالب على هذه الدنيا الفانية؟! كن في الدنيا كأنك لم تأتها... ومع الآخره كأنك لم تفارقها».

وكانوا يبكون الدنيا توجداً في الآخرة... حتى إن البعض منهم يسمونهم (البكاؤون) ومن كثرة ذنوبهم يسألون الله المغفرة... ويقول جلال الدين الرومي في هذا الخصوص «إن الله يحب أن يبكي عبده».

إن انشغال الصوفي بروحه في عالم الأرواح أداء روحاني

يُجرده من القيم الإنسانية في الحياة الدنيا... ويصبح الصوفي خارج مشاعره الأسرية تجاه زوجته وأولاده... وكانت أشعار جلال الدين الرومي بروعتها الوجدانية لا تقيم وزناً ولا ببيت شعر واحد لزوجته (جوهر خاتون) أو لأحد أولاده... بل إن ما قاله في «المثنوي» ما يشير إلى انعدام مشاعره الروحية والوجدانية تجاه أولاده «بأن لموت أولاده عنده حلاوة».

وتقول آنا ماري شيمل في كتابها آنف الذكر: «وما كانوا يبالون بمظهرهم ولا بلباسهم وعلى الرغم من أنهم كانوا دائماً في حالة طهارة... إلا أن ابن أدهم كان يفخر بجموع القمل التي كانت تسكن رداءه وفي سنة ٩٠٠ نادت خادمة لصوفي بغدادي: «إلهي ما أوسخ أوليائك ليس فيهم نظيف» (نفحات الأنس ٦٢١)...

ولا أحسبنّ الله يرضى أن يكون له وليٌّ تجلله الوساخة وجسمه يعج بالقمل... والصوفي حافي القدمين لأنه يرى أن النعال «حجاب في طريق الله»...

ونرى عبدالرحمن بدوي يُمجد شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية) «هي المخدرة بحذر خاص المستورة بستر الخلاص واحتراقاً الضائعة في الوصال المقبولة من الرجال ثانية المريمين الصفية رابعة العدوية».

ويذكر أن رابعة العدوية كانت تسير يوماً في أحد شوارع

البصرة وكانت تحمل في يدها شعلة نار وفي اليد الأخرى قدر ماء... وكانت تقول «أريد أن أضع الشعلة في الجنة وأصب الماء على النار حتى يختفي هذان الحجابان فيستبين من يعبد الله عن حب ممن يعبده خوفاً من ناره أو طمعاً في جنّته». والمثل يقول الذئب لا يهرول عبثاً... أيهرول الذئب عبثاً؟!

وأحسب أن كل العبادات أساساتها في خوف نار... وطمأنينة جنة... وإلا تجرد الخالق والمخلوق: من جدل حب وكراهية... جدل خير وشر...

وفي «المثنوي» يتفذلك جلال الدين الرومي شعراً... ما أكثر فذلكات هذا الرومي...

حبيب قلبي ليس لي سواك
فاعطف على مذنب أتاك
يا أملي وراحتي وقرّة عيني
القلب لا يسع حباً لسواك».

وهو يشاكل في حبه بين شمس الدين التبريزي وبين الله فيرى الله في شمس الدين ويرى شمس الدين في الله!! وكأنه يخاف هذا... وهذا... ويحب هذا... وهذا...

«فالحب نشأ عند المتصوفة في الأزل ويبقى إلى الأبد وليس هناك في السبعين ألف عالم من يشرب منه قطرة إلا ويكون مرده

إلى الله» وهم المؤمنون دون غيرهم الذين يرون «يُحبهم ويُحبونه» وفقاً لقوله قرآنياً في الحب... وأحسب أن الصوفية هي توجسات دينية غارقة في أحاسيسها الوجدانية المجبولة بالوهم «... على عرش شطحاتها في صوفيي الدول العربية وفي إيران وتركيا والهند وباكستان في امتدادات روحية وتجليات وجدانية لها أساس في الأديرة المسيحية التي تعتمل فيها التقاليد الصوفية الدينية على أحسن أوجهها العبادية... وقد تجلت الصوفية كثقافة دينية لها قوّة الإيقاعات اللغوية التي تأخذ طريق سحرها حفراً في الذاكرة»...

وبشاعريتها العرفانية في شعراء فطاحل: أتراك وإيرانيين سمو بها في أعالي الروح الإنسانية وهي تتجلى خالدة في حضور الله وهو على عرشه في السماء!! وفي مبدئية عرفانية ترى: «من ذكر الله نسي كل شيء سواه».

إن الصوفية في مقاربات أبعاد متناقضات مسافاتها تفقد نفسها وتحسب أنها تدريها وهي لا تدريها... ألِعالم الغيب والشهادة دراية؟!

إنها تعيش أوهام درايات لا تدريها أشبه بوعي جنون اللغة في اللالغة... لنستمع إلى جلال الدين الرومي: عن المحب الذي لا يسمح له بدخول بيت محبوبه إلا إذا صار عدماً وهو يهذو (وحيث صرت «أنا» فادخل يا «أنا» فهذا البيت الضيق لا يسمح إثنين من الـ«أنا»)...

«إن حلاوة الحياة في باطنها وليس في ظاهرها» أللباطن قيمة إذا خلا الظاهر؟! أيمكن فصل طعم الباطن عن طعم الظاهر؟!

إلا أن لذّة أشعار المتصوفة وطعم جُذاذات لذائذها الروحية في همس النفس تغلك غلاً إلى الباطن دون الظاهر...

«شغلت قلبي عن الدنيا ولذّتها
فأنت والقلب شيء غير مفترق
وما تطابقت الأحداق من سنة
إلا وجدتك بين الجفن والحدق

(أو)

ولا هممت بشرب الماء من عطش
إلا رأيت خيالاً منك في الكأس

(أو)

أريد وصاله ويريد هجري
فأترك ما أريد لما يريد»

وكانت عواطف توأوئ بأو من لذائذ أطباق أشعارهم حتى اصطفتها رياح صفوة أرواحهم وتشاكلت في نومها ويقظتها!!

احتضنني نور، تقول عواطف، وتنامت أحاسيسي فيض نور فجلوت مرآة نفسي بنورهم... وتماثلت جذاذ شطحات أنوار

تتجاذبني حتى أصبحت أتطاير جذاذات أحاسيس أنوار فأحترق على فراش نومي كفراشة غوت طريق نفسها فاحترقت...

إني أحترق بهجة في نوره... أمد يدي تلامس نوره فتفيض روحي عطر نرجس أنفاسه... وأغط أقارن بين نرجس أنفاس رجل وبين أنفاس امرأة... فأقول النرجس نرجس برائحته أكان في أنفاس رجل أم في أنفاس امرأة... أليس هناك عبير نرجس في أنفاس جلال وأنفاس شمس؟! عندما يختليان وحدهما تفوح رائحة النرجس في عناقهما الروحي...

وفي صهد أحلامي يفيض أمامي (أبا زيد) الصوفي الذي لا يشق له غبار في شطحات عرفانياته الروحانية بجبته الصفراء وعمامته الخضراء وقامته الطويلة وسرواله الفضفاض المطرزة أطرافه بخيوط بنية... وهو يومئ بيده ويضع السبحة في اليد الأخرى قائلاً: «مافي الجنة إلا الله»... فهاج وماج عليه مريدوه ولما أرادوا أن يقتلوه رُدت سكاكينهم عنه... من ردّها؟! الله ردّها (!!!)

وانتقل فيه متصفحاً «المثنوي» إذ يقول جلال الدين الرومي: «ولأن العابد الكامل مرآة تعكس صفات الآخرين»... وكان هناك زرادشتي لم يرد أن يدخل الإسلام لأنه يشعر أنه أضعف من أن يتخذ ديناً يخرج أبطالاً مثل (أبي زيد) وكانت محبة (أبي زيد) عند المتصوفة تؤدي إلى فقدان التوازن...

وكانوا يقولون: «سكرنا من كثرة ما شربنا من كأس محبته»...

أمد يدي في نوره نور الحلاج وليس نور (أبي زيد) فليس فيه نور... فأستفيض في نوره حقيقة الله... هو بعينه أهجسه يتلألأ نوراً ويفيض عطراً إنه الحسين بن منصور (الحلاج)...

قصير القامة بهي الطلعة ينضح نوراً من كل جوانبه... تقاطيع قامته صارمة وعيناه الزرقاوان نظراتهما حادة... لونه وردي ووجهه مشع الاستدارة رقبته طويلة وأنفه حاد ينحني تحته شارب حريري ناعم السواد وعلى جسده الطاهر ينسدل رداء ناصع البياض كلون النرجس فأتنسمه زهر نرجس فوّاح يمور في ثناياه أقدّه الله من نرجس؟!

يقترب مني عالم دين... لحيته طويلة وثيابه قصيرة وعيناه مضمختان بالكحل وفي يده مسواك يحركه بين شفتيه...اقتلع مسواكه من فمه فساءتني روائح منه... قرّب شفتيه من أذني هامساً، وقال وهو يمد إصبعاً مرتعشاً نحوه: أتدرينه؟ إنه الحسين بن منصور الحلاج «هذا المحتال المشعوذ الذي يتعاطى مذهب الصوفية... ينتحل ألفاظهم ويدعي العلم والمعرفة وهو صفر من ذلك... ويعرف شيئاً من صناعة الكيمياء إلا أنه جاهل مقدام متهور جسور على السلاطين مرتكب للعظائم يروب أقلاب الدولة ويدعي عند أصحابه الألوهية ويقول بالحلول».

صممت أذني عنه وأنا غارقة في نوم يقظتي (أعيش غمرة (أنا) الحلاج... غمرة الفضل الإلهي... أعيش غمرة هذا القرمطي الشيعي الباهي عدلاً في عدل الله... إنه من سلالة القرامطة العظام الذين حكموا البحرين وامتد حكمهم إلى شمال السند...)

أضع يدي على نبض قلبي وأنا أراه يُساق وهو يرقص مغلول اليدين والقدمين إلى حتفه... يستجلي في نفسه فيض أسرار الاتحاد والانفصال بين المخلوق والخالق... يزفر زفرات الخالق في المخلوق ويقول: «إنهم لا يعلمون ما يفعلون أما هو... فكان ينبغي أن يعلم». أكان في ذلك عتاب الحبيب إلى المحبوب... الذي لم يُحرك ساكناً تجاه حبيبه الذي يساق إلى الموت؟! يا لجلل زفير روحه... يا لجلل رقة وعذوبة صوته وهو يترنم...

«إقتلوني يا ثقاتي
إن في قتلي حياتي
فاقتلوني واحرقوني
بعظامي الفانياتِ
ثم مروا برفاتي
في القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبي
في طوايا الباقيات».

وضعت كتاب (الطواسين) على قلبي وأشعلت ذاتي في ذاته أستجلي فيها اتحاد ذات (الحلاج) في ذات النبوة وأصعد بروحي في روحه مترنمة إيقاع تعظيم النبي في عظمة إيمان الحلاج وهو يردد:

«ان الله لم يخلق أحب اليه من محمد وآله».

لقد تطوسنت روحي في طواسينه فتناميت نوراً يتفلّق في نوره...

«أنوار النبوّة من نوره برزت
وأنوارهم من نوره ظهرت
ووجوده سبق العدل
واسمه سبق القلم
قبل أن يخلق القلم
لأنه كان قبل الأمم».

فتفيض نفسي فيه «حقيقة الحقيقة»... وأتمثلها فراشة مضمخة بالنور تندفع بجناحين متيمين في محرقة من نار ونور... وأصيخ إليه قائلاً:

«للناس حج ولي حج إلى سكني
تهدي الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي
تطوف بالبيت قوم لا بجارحه

بالله طافوا فأغناهم عن الحرم».

فأتجافل نوراً فيه... وهو يتماهى فيه... حتى أصبح هو...

«لست بالتوحيد ألهوَ

غير أني عنه اسهوَ

كيف أسهو كيف ألهوَ

وصحيح أنني هوَ».

إن الحلاج خلاف غيره من المتصوفة لغته عميقة غير متدنية تضج بالتعبيرات الكيمياوية والمعاني الصوفية الشديدة العمق وفي أشعاره تتجلى إبداعات أخّاذه قد تقود في ذائقتها الشعرية إلى تأويلات قد تهز العقيدة...

«وأي الأرض تخلو منك حتى

تعالوا يطلبونك في السماء

تراهم ينظرون إليك جهراً

وهم لا يبصرون من العماء».

فأفيض الحلاج ويفيض حباً له خصائص إلهية عميقة المعنى خلاف غيره من المتصوفة...

وأنه الحق عن حق دون غيره من المتصوفة... إذا كان للمتصوفة (حق) وهم ينأون بأنفسهم عن مصارعة الظلم... فالحق لا يكون ولا يتكون إلا في إجهاد النفس في مقاومة الظلم بأشكاله

المادية والروحية... إن معاناة الروح وجهاديتها في ماديتها وليس خارج المادة: إذ لا مادة بدون روح!!

وفي الرجوع إلى بدء الحالة أي: «كما كان قبل ان تكون»

كيف كان قبل أن يكون؟! أيكون لأحد قبل أن يكون؟!

إن «العشق» هو أساس الحياة دون منازع... إن كشف حجاب الـ(أنا) أي تعريتها على حقيقتها... ولا يمكن كشف حجابها وتعريتها إلا في حالة لحظة تكونها في كينونة أزليتها في إدراك طبيعة أزلية الذات الإلهية في أزليتها... والحلاج يرى أن الطبيعة البشرية تشبه الطبيعة الإلهية... أطبيعته طبيعة ذكر أم أُنثى... أهو ذكر أم أُنثى: ابن عربي يراه في ذاته الأنثوية...

وأرى في الحلاج أنه نسيج ذاته... في نسيج ذاته... التي تتوعى الذات الإلهية في ذاتها وتصقلها بصقل معانٍ بشرية تتماهى في معانيها الإلهية...

وأحسب أن جملة (إن في موتي حياتي) الحلاجية أصبحت لها تأثيرات أقوى منها في حياته، وأن هناك من يحلم بظهور الحلاج على شواطئ دجلة...

وقد أفشى الحلاج سر الحب المكنون... حجب المتصوفة: فواجه حتفه وهو ما عناه السهروردي:

«بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباح»

ويرى الشاعر الفارسي الكبير (فريد الدين العطار) أن الحلاج من أئمة المتصوفة العظام ويتناوله كثيراً في أشعاره وملاحمه... وللحلاج الشهيد تأثيرات ثقافية وفكرية وقد تناول ثقافته الصوفية المميزة الكثير من المفكرين والمستشرقين مذكرين بصرخته التي ما برحت لها ذاكرة مجللة على صعيد الثقافة العالمية (أنا الحق)... أي أن الإنسان الحق وما عداه باطل... !! ؟؟

رأيتك في صحوة منامي فتخالطت فيّ وتخالطت فيك بحثاً عنه... وأراك تُمسكه فأمسكه معك ويتسرب نوراً من بين أصابعي ولا يتسرب من قبضة قلبك... أبسط يدي وأقبضها عليه نوراً مشعاً أراك فيه وحدك دون أحد غيرك من المتصوفة... بلى إن ابن عربي كذا نور يتلامح فيه... أنت رأيته بقلبك وأنا رأيته في منامي... لقد اختلفت الرؤيا فيه فهو مختلف ليس كمثله شيء... إذاً هو شيء... ما هو هذا الشيء شيء من نور ونور من شيء لا أحد يدريه... أقترب منك وأضع أذني على وجيب قلبك...

فأسمعك تقول:

«رأيت ربي بعين قلبي فقلت من أنت؟ قال أنت
فليس للأين منك أين وليس أيـــن بحيث أنــت

أنت الذي حزت كل أين بنحو (لا أين) فأين أنت».

كأن جحوداً يتسامى بيني وبينك: إني أجحدك ولا أجحدك... وكأنك أنت جحدي وأنا جحدك في إيمان وحدة جحودنا... وفي جحد إيماننا... أؤمنه ولا أؤمنك... وأؤمنك ولا أؤمنه... كأن الشيطان في زيغ حلمي فيك وهو يأخذ بي إلى شعرك...

«جحودي فيك تقديس
وعقلي فيك تهويس
وما آدم إلّاك
ومن بين البين إبليس
وما لي غيرك سبيل
وإني محب ذليل»

إبليس اللعين يرفع مؤشر زيغ التشويش فيّ... فأغدو رهن زيغ تشاحن اهتزازات تأخذني إلى صدر وعجزها زيغات تجلياتك الشعرية:

«كفرت بدين الله والكفر واجب
عليّ وعند المسلمين قبيح».

فتتنامى فيّ زيغاً ولا تتماهى (!!) وأحسك تقول:

«ليس سوى الرحمن (يا قومنا)
شيء له أرواحنا تألف».

فأتساءل أهذي الشعر مخرجه القلب أم اللسان؟!

في القلب زيغ وعلى اللسان تثريب

وأنت تدير وجهك عني دون أن تجيبني وأنا مُعنـّاة فيك وجداً إلهياً...

أجمالية الشعر في زيغه؟!

«والله لو حلف العشاق أنهم

موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا

قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا

ماتوا وإن عاد وصل بعده بُعثوا

نرى المحبين صرعى في ديارهم

كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا»

فأغيبه هو (...) في حلمي وأغيبك معه وأحتضن حبيبتي في وهج عناق وبهجة لذّة الحياة في حياتها عناقاً مادياً سلاماً حتى مطلع الفجر... وأنا أترددها نسيم عطر يفُض سقف السماء فأتنسمك شعراً عذباً فيها:

«يا نسيم الريح قولي للرشا

لم يزدني الوِرد إلا عطشا

لي حبيب حبه وسط الحشا

لو يشا يمشي على خدي مشا

روحه روحي وروحي روحه
إن يشا شئت وإن شئت يشا».

ما أشد زيغي فيك حلماً... أعقاب في زيغ الحلم أم تثريب؟!

كأنك خصوصية بهاء زيغ عندنا تأخذني موجات الزيغ موجة... موجة... ودفعة دفعة... فأتدافع خارج الصراط المستقيم (صراط الذين أنعمت عليهم ولا الضالين).

الضلال في الزيغ... أم الزيغ في الضلال؟! أأزيغ فأضل... أم أضل فأزيغ؟! أزيغُ حلال وزيغ حرام؟! أم أن كل زيغ حرام!!

أزيغ الحلم حلال أم حرام؟!

لا يهم أني أتزيغ حبيبتي وهي تتزيغني زيغ حلال وحرام حتى مطلع نجمة الصبح...

لا يهم ولن أقف عند فذلكات شعرائكم وأئمتكم المتمترسين خلف مبهمات ماورائية الخفاء والاختفاء... فالله ليس خفية... لكي تخفوه عنا في قلوبكم... عفواً أخرجت على أدب نصوص (طواسينك) وما الطاسين إلا رمز نور الغيب:

«وبدا وعاد وجاوز السراج وساد قمر تجلى من بين الأقمار بُرجه في فلك الأسرار».

إن روحانية ما تراه في قلبك وما أراه في مادية عقلي... إنكم تسبحون وتُسبّحون في فلك أسرار أوهام تلوذون بها دون كشف

حقائق لا وجود لحقيقة حقائقها إلا في تجليات أفلاك مزاعم أسراركم (...)

روحانية القلب أصدق من مادية العقل (لا أظن) أنتم ترون القلب أقرب إلى الله... ونحن نرى العقل أقرب إلى الله... العقل يجافي القلب والقلب يجافي العقل فأين الملتقى وكيف نمسك خيطاً واحداً من وشائع خيوط الله التي تلف السموات والأرض(؟؟)...

علاقة الناسوت باللاهوت علاقة متاهة تشابكونها متاهة في متاهة تجليات الناسوت في اللاهوت...

فأنا كلما أمسكت بناسوتي تلاشيت عقلاً في لاهوتي...

أيكون اللاهوت مصيدة الناسوت أم الناسوت مصيدة اللاهوت... من يصيد من؟!

إن هذا التصايد أراه ينمّط تجلياتكم الشعرية:

«دخلت بناسوتي لديك على الخلق
ولولاك لاهوتي خرجت من الصدق
وإن لسان الغيب جلّ عن النطق
فتظهر للألباب في الغرب
وطوراً عن الأبصار تغرب في الشرق».

الناسوت تاريخ وعلم واللاهوت خارج عن التاريخ والعلم...

الناسوت لسان علم ومعرفة ولغة وكلام ونطق وتجارب... واللاهوت لسان غيب وهدى هداية في علم كلام خارج التاريخ: فإن أمسكت بالناسوت أضاعك اللاهوت وإن أمسكت باللاهوت أضاعك الناسوت...

دلني خذ بيدي فأنا في لاهوت غطيط أحلامي...

أيمكن مزج الناسوت باللاهوت أو مزج اللاهوت بالناسوت كمزج الخمرة بالماء أو أشد مزجاً «إن شقت عليكم شربها فاكسروها بالماء»

كسر اللاهوت بالناسوت أم كسر الناسوت باللاهوت أيهما أشد كسراً؟!

في الكسر لأحدهما تطيب الحياة شراباً...

«مزجت روحك في روحي كما
تمزج الخمر بالماء الزلال
فإذا مسّك شيء مسني
فإذا أنت أنا في كل حال»

كن لي ناسوتاً أكن لك لاهوتاً... أو كن لي لاهوتاً أكن لك ناسوتاً...

«يا كل كلي فكن لي
إن لم تكن لي فمن لي».
أكون لك ناسوتاً أم لاهوتاً؟!
إذا حلّ المزج!! أطعم الناسوت يختل في طعم اللاهوت...
أم أن طعم اللاهوت يختل في طعم الناسوت (!)
وكأن أبا نواس شق قلب الحقيقة قائلاً:
«فأشربها صرفاً وأعلم أنني
أعذّب فيها بالثمانين على الظهر».
في دعوته عدم المزج بين زلال الخمر وبين زلال الماء... وإنما الحث على شربها صرفاً... فالخمرة في زلالها والماء في زلاله... كما أن الناسوت في زلاله واللاهوت في زلاله... أفي هذا ما يعني فصل الدين عن السياسة؟!
أللناسوت زلال... أم الزلال للاهوت وحده...
خداع الدنيا في ناسوتها أم لاهوتها؟! في حلالها وحرامها... أم أن حلالها يحل حرامها وحرامها يحظر حلالها... فالدنيا في طيبات حلالها وحرامها...
«دنيا تخادعني كأنني
لست أعرف حالها

حظر الإله حرامها
وأنا اجتنبت حلالها
مدّت الي يمينها
فرددتها وشمالها
ورأيتها محتاجة
فوهبت جملتها لها
ومتى عرفت وصالها
حتى أخاف ملالها»

الحق (...) يُشاهِدُ ولا يُشاهَدْ والحق يَعْرِفُ ولا يُعْرَفْ... فأنت (الحق) تَعْرِفُ ولا تُعْرَفْ:

«لا يعرف الحق إلا من يعرفه
لا يعرف القدمي المحدث الفاني
لا يستدل على الباري بصنعته
رأيتم حدثاً ينبي عن أزمان
كان الدليل له منه إليه به
من شاهد الحق في تنزيل فرقان».

أخذ النقض بالنقيض: فالنقيض طريق معرفة الحياة... نقيض الإيمان في الإيمان يُصوب دليل المعرفة في تعريف الحق... إذاً أنت حق (...) وهو حق (...) أهو من حقك أم أنت من حقه...

أم أن الكل يدعي حقيقة الحق... وقد أضعنا الحق والحقيقة في ناسوتنا ولاهوتنا... دون أن نشاهد الحق في (تنزيل فرقان)...

«أنا أنت بلا شك
فسبحانك سبحاني
وتوحيدك توحيدي
وعصيانك عصياني
وإسخاطك إسخاطي
وغفرانك غفراني
ولم أجلد يارب
إذا قيل: هو الزاني»

ما علي - أقولها مجلجلة - لكم سبحانكم ولي سبحاني... فأنا هي... وهي، أنا هي تهواني وأنا أموت هوى في هواها... أتجسدها روحاً وجسداً وتتجسدني روحاً وجسداً فنصبح روحين في روح واحدة... فلي هواي ولكم اهواؤكم...

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
روحه روحي وروحي روحه
من رأى روحين حلّت بدنا».

افتح عيني على مصراعيها... أعركها براحة يدي... أفتحها

وأغمضها فيطرد وعيي النوم من عيني... أفتحها وأعيد غمضها... أسترجي غطيط نومي (...) جمالية رحلة حلمي... غفوة بعد غفوة في صحوتي...

فأدري أن بين الوعي واللاوعي مسافات لا نصلها إلا في أحلامنا...

فالأحلام مسافات حريات لا حدود لمسافات الحرية فيها في اللاوعي وهي في حل من مآخذ دينية وأخلاقية ومن عقاب القوانين الوضعية!!

أشطح المتصوفة شيء من الأحلام عندهم! ؟

ذلك ما قالته عواطف بعد أن انتهت رحلة حلمها...

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ مطارحات فكرية ـ الجزء الأول، ١٩٦٠.

٢ ـ مطارحات فكرية ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠١.

٣ ـ قضايا سعودية، ١٩٦٠.

٤ ـ بصمات وجدانية، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠١.

٥ ـ موج البحر، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠١.

٦ ـ في الثقافة والنقد، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠١.

٧ ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الأول، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠١.

٨ ـ العلمانية طريق التقدم، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٤.

٩ ـ عبدالعزيز المعمَّر.. ذاكرة الوطن، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٥.

١٠ ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٥.

١١ ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثالث، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٧.

١٢ ـ ما هي الليبرالية، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٧.

١٣ ـ الإرهاب في جزيرة العرب، دار الفارابي، ٢٠٠٨.

١٤ ـ إني أشم رائحة مريم، الجزء الأول، ط١، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٢، ط٢، دار الفارابي، ٢٠١٠.

١٥ ـ إني أشم رائحة مريم، الجزء الثاني، ط١، دار الفارابي، ٢٠١٠.

١٦ ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الرابع، دار الفارابي، ٢٠١١.

١٧ ـ المساءلة، دار الفاربي، ٢٠١١.

١٨ – هكذا تكلمت المعتزلة عقلاً، دار الفارابي، ٢٠١٣.

١٩ ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الخامس، دار الفارابي، ٢٠١٤.

٢٠ ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء السادس، دار الفارابي، ٢٠١٥.

المحتويات